المركز العلمي العراقي ــ بغداد

فلسفة اللغة

أريك غريلو

ترجمة

عفيف عثمان

51

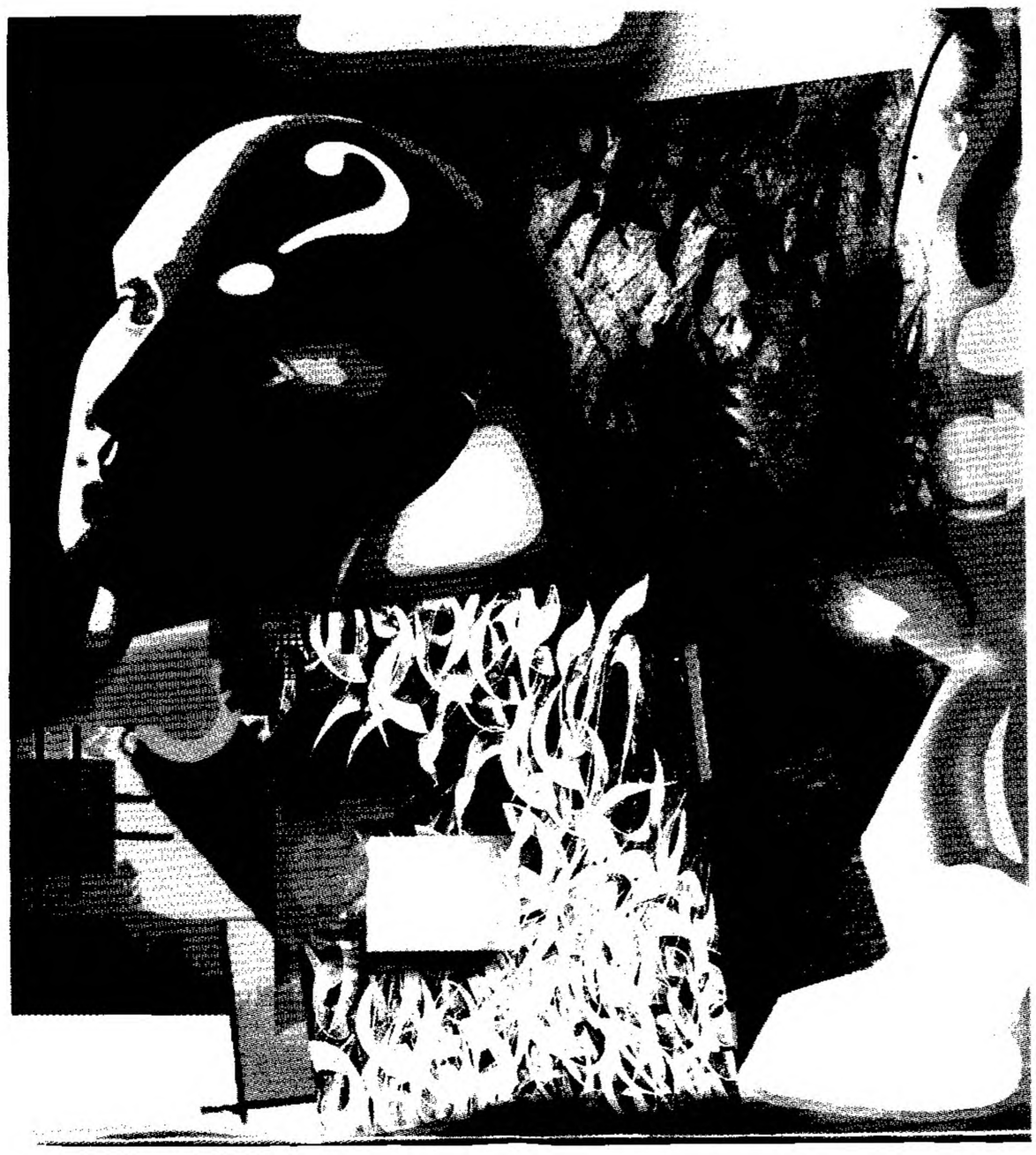

أريك غريلو
فلسفة اللغة
المركز العلمي العراقي

فلسفة اللغة

دار ومكتبة البصائر
للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان - بيروت
009613210986 - 009611547698
Email: iraqsms@gmail.com
Email: iraqsms@windowslive.com
Email: iraqsms@ymail.com
www.daralbasaer.com

طبع في لبنان

أريك غريلو

فلسفة اللغة

ترجمة

عفيف عثمان

المركز العلمي العراقي - بغداد

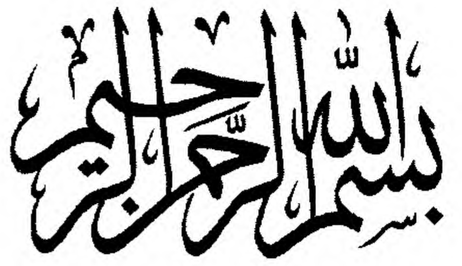
بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب فلسفة اللغة

المؤلف أريك غريلو

ترجمة عفيف عثمان

دار النشر دار ومكتبة البصائر - بيروت - لبنان

الطبعة الاولى

تاريخ الطبع 2012

الاخراج الفني ليث عباس علي

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 525 لسنة 2012

جميع الحقوق محفوظة للمركز العلمي العراقي

البريد الالكتروني

sci.studies@yahoo.com

المركز العلمي العراقي

المحتويات

توطئة	7
1. ما فلسفة اللغة؟	9
2. في مصادر "المنعطف اللغوي"	17
3. زمن الإصلاحات	27
4. الورثة المباشرون: رسل وفتجنشتين	35
5. لحظة كواين	45
6. مقاومة وإنشقاق	57
7. عودة اللغة العادية	67
8. أوستن: كلمات من أجل الفعل	79
9. نظرية أفعال اللغة	91
10. أبعد من أفعال اللغة	103

توطئة

وصف أحد المؤرخين الغربيين القرن المنصرم بأنه القـــرن العشرون الطويل. فقد عَرَف حربين كونيتين مدمرتين، وشهد أيضاً أهم الإنقلابات الفكرية في الفن والعلم، ونالت الفلسفة فيـــه أيـــضاً نصيبها، إذ أتت فلسفة اللغة التي عُدّت "ثورة البحث عن المعنـــى"، مثابة إنقلاب على الميتافيزيقا، أو الفلسفة الأولـــى كمـــا وضـــعها أرسطو، وأنكرت أن تكون محبة الحكمة "نظرة شـــاملة للعـــالم" أو إمكان تحقيق أي تصور كليٍّ له، وأن عليها أن تحـــل المـــصاعب الناجمة عن الإستخدام الخاطئ للكلمات فحسب. وهي لا تهتم باللغة بشكل رئيسي، بل إنها حديث فلسفي عن(اللغة) أو تفلـــسف حـــول اللغة، كما يقول صلاح عبد الحق "التحليل اللغـــوي عنـــد مدرســـة أكسفورد، 1993".

أرادت هذه الفلسفة الجديدة أن تحاكي العلوم التي حققت تقدماً ملحوظاً لجهة الدقة والوضوح والضبط، فقـــد رغـــب الفيلـــسوف النمساوي لودفيغ فتجنشتين، كأبرز وجه لهذا التيار الفلسفي، في لغة مضبوطة يمكنها تمثيل الواقع. وفي عرفه فإن"هدف الفلـــسفة هـــو توضيح الأفكار"، وإنه"يجب السكوت عما لا نستطيع الكـــلام فيـــه" (الرسالة المنطقية- الفلسفية). ركّز فتجنشتين، وأقرانه لاحقاً، النظر في اللغة باعتبارها وسيلة لفهم تكوين المعنى فـــي الخطـــاب، إذ لا سبيل إلى فلسفة التفكير والمعرفة والفهم دون اللغة: كل شيء يحدث داخل اللغة، وهذه الأخيرة" سُمّ يمكن استخدامه للإغواء والتـــضليل والسحر، ولكنها أيضاً ترياق وذلك عندما نتحدث بصدق". لم يعـــد

المهم بالنسبة إلى الفلسفة والمنطق، كما يرى د. عبد الرزاق بنُـــور في قراءته لفتجنشتين، أن نبيَّن ما هي القضايا الصادقة والكاذبة في علاقتها بالواقع، بقدر ما يهم النحو باعتباره ما سيمكننا من تمييـــز القضية ذات المعنى من القضية عديمة المعنى، فالفلسفة هي قبل كل شيء مقاومة الفتنة التي تحدثها فينا بعض أشكال التعبير كما يقـــول فتجنشتين في الكراسة الزرقاء(تحقيقات فلـــسفية، ترجمـــة وتقـــديم وتعليق د. بنور، 2007).

والحال، وبسبب من المناهج الجامعيـــة العربيـــة، إنـــصرف بعض الأكاديميين والباحثين إلى الإهتمـــام بفلـــسفة اللغـــة(وتاليـــاً بالوضعية المنطقية والفلسفة التحليلية) ونقل ما تيسر منها إلى لغـــة الضاد، بيد أن الحصيلة في المجمل كانت ضئيلة، وفي هذا الـــسياق يمكن أن نُشيد ونشير إلى الجهد الذي بذلته مجلة"العـــرب والفكـــر العالمي"، وفي السنوات الأخيرة حدثت "يقظة" في اتجاه الترجمـــة، كان لفلسفة اللغة(واللسانيِّات) نصيب الأسد منهـــا، بمبـــادرة مـــن المنظمة العربية للترجمة تحديداً.

ترجمة كتاب فلسفة اللغة، الموجز والكثيف لإريك غريلو(*)، الأستاذ في جامعة باريس الثالثة(السوربون الجديدة)، إنما يهدف إلى تقديم خدمة للطالب الجامعي، وإضافة لبنة إلى المعمـــار الفكـــري العربي التائق إلى النهوض مجدداً، من باب الترجمة.

عفيف حيدر عثمان

---

* Éric Grillo, La philosophie du Langage, (Paris, éd. Seuil, col. Mémo, 1977), 64 Pages.

1. ما فلسفة اللغة؟

1- محاولة توضيح ما هي فلسفة اللغة؟

أ. المفهوم الواسع

لنأخذ تعبير (فلسفة اللغة) بالمعنى الواسع، والذي يتوافق مع المفهوم الشائع الأكثر استخداماً. إنه يشير إلى كل فلسفة تعرضت في أثناء تطورها إلى مسألة اللغة وتناولتها بشكل منفصل.

فبالنسبة لهذه الفلسفة، تصبح اللغة ولوقت الموضوع المفضل للبحث. بهذا المعنى، يمكننا القول أن الاعتبارات الخاصة باللغة والتي تمثل ما هو جوهري في محاورة"كراتيل" Cratyle(*)، تحدد فلسفة اللغة عند افلاطون.

تاريخ الفلسفة من أفلاطون إلى فوكو مليء بأمثلة مماثلة. ولكن المقاربة لسؤال اللغة تتم بطريقة جانبيّة. بمعنى أنه لا تعطى له الأولوية مقارنة بالموضوعات الأخرى ولا يكون موضوعاً رئيسياً للتساؤل الفلسفي. واللغة عموماً عرضة لمقاربات متعددة.

- **المقاربة "الخارجية"**: وذلك بالعمل على اللغة، ليس في ذاتها ولذاتها، ولكن في علاقاتها مع حقيقة أخرى: هكذا تناول ديكارت اللغة في علاقتها بالفكر والعقل، أو روسو الذي طرح سؤال أصلها

(*) أنظر، أفلاطون، محاورة كراتيليوس، ترجم المحاورة وقدم لها بدراسة تحليلية د. عزمي طه السيد أحمد، (الأردن، منشورات وزارة الثقافة، 1995).(المترجم).

وفصلها وألحّ على بُعدها الاجتماعي، أو أيضاً هيغل الـــذي اهـــتم بعلاقات اللغة بالثقافة.

- **المقاربة "الداخلية"**: يمكن تناول اللغـــة مـــن وجهـــة نظـــر «داخلية»: من أجل تحليل طبيعتها، وأواليات اشتغالها وسلطاتها.

وثمة من يؤالف بين المقاربتين في بناء واحد، كما يشهد علـــى ذلك مثل أرسطو الذي عرض للغة في تنظيمهـــا الـــداخلي وفـــي علاقتها بالواقع(المنطق)، وفي بعدها الجمـــالي(الـــشعرية)، وفـــي اشتغالها الاجتماعي(الخطابة).

ب. المفهوم الضيق

إذا أخذنا تعبير "فلسفة اللغة" في مفهومه المحدد، فإنه يـــشير إلى تيار رئيسي في الفلسفة المعاصرة، مهيمن في العالم الأنجلـــو-ساكسوني. برز هذا التيار الفكري فـــي فجـــر القـــرن العـــشرين المنصرم من خلال إنقلاب في النظر أطلق عليه "المنعطف اللغوي" (Tournant Linguistique, Linguiguistic turn) والذي كان مطلوباً منه المساهمة في التجديد العميق في مفهوم الفلـــسفة وفـــي ممارستها في آن معاً.

2ـ طريقة جديدة في التفلسف

أ.جذرية

هذا النوع الجديد من المقاربة وُسم بالجذرية لأســـباب عـــدة. بداية، من الرغبة في القطع(volonté de rupture) التي أظهرها الآباء المؤسسون لهذا التيار(فريجه، رسل، كارناب)، الراغبون في

الإنتهاء من نوع من "الانحراف" (dérive) في الفلسفة تجسد في أعينهم بالميتافيزيقا الموروثة من القرون المنصرمة. وإذا كان نقد الميتافيزيقا ليس جديداً، فإن الطريقة التي أرادوا انتهاجها هي كذلك وتتصف بالجذرية. فلم يعد التعرض للأنظمة الفلسفية بسبب من مبادئها أو فرضياتها ولا حتى بسبب آثارها المحتملة، ولكن وفي الظاهر على لغتها. ففي اللحظة التي نطرح فيها وبشكل صارم ودقيق سؤال معنى القضية التي تولدها، نكتشف أن هذه الأنظمة الميتافيزيقية ليست إلا خليطاً من شبه الملفوظات (pseudo-énoncés) "خالية الدلالة". يبدو الأمر مختزلاً على هذا النحو، ولكن الرغبة في القطع لدى المنظرين الأوائل قادتهم إلى هكذا جذرية، وقد اقتضى تسجيل ذلك حتى نكون على بيِّنة من الخلفية السجالية التي انبثقت عنها فلسفة اللغة المعاصرة.

ب. طرائق جديدة

الموقف الجذري للمؤسسين يتبدى أيضاً في وجهتي نظر: في نمط تناول اللغة والمكانة التي تبوأتها وفي سؤال الدلالة داخل العمارة الفلسفية. إن نمط التناول الذي تخضع له اللغة هو ما يشرح الجدة في توجيه الضربات إلى الميتافيزيقا القديمة، موضوع النقد. لا إلى(مادتها) بل إلى لغتها. فلوصف تعبير فلسفي ما بأنه "خال من الدلالة" (dépourvue de ،signification) يجب إمتلاك معيار نحاكم على أساسه الملفوظات، وهذا المعيار مستعار من "المنطق الجديد" الذي تطور بسبب أزمة أسس الرياضيات والذي وضع في تصرف

المفكـــــرين أدوات غيـــــر مـــــسبوقة: نظريـــــة الأســـــوار (Théorie de la quantification)[1]، ونظريـــــة الدلالـــــة الأصلية(المعنى الحرفي) (Théorie de la dénotation) ونظرية الأنمـــــاط (Théorie des types)[2]، وحـــــساب العلاقـــــات (calcul des relations)[3]. قدر من الأدوات التي تسمح بالتحليل

---

[1] التسوير Quantifier، عملية في المنطـــق الرياضـــي تـــربط متغيـــرات الموضوع أو القضايا المتغيرة، أو المحمولات المتغيرة في الدالات المنطقيـــة المختلفة. بحيث تكون تعبيرات تتميز تماماً وبصورة محددة بقيمة الـــصدق أو الكذب، (الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، بيروت، دار الطليعـــة، ط4، 1981، ص251). (المترجم).

[2] نظرية تراتب الأنمـــاط (Theory of Types)، مـــنهج لبنـــاء المنطـــق الصوري(الرياضي) توضع بواسطته تفرقة بين الموضوعات ذات المـــستويات المختلفة والأنماط، ويهدف هذا المنهج إلى استبعاد المفارقات أو التناقضات من المنطق ونظرية الأعداد. وكان أرنست شرودر أول من وضع نظرية الأنماط وطبقها على منطق الفئات (1890)، وفي الأعوام 1908- 1910 بنى برتراند رسل نسقاً تفصيلياً من نظرية الأنماط وطبقه على حساب الاحتمالات. وهـــو يقوم على أساس التفرقة- طبقاً للأنماط- بين الأفراد (نمط1) والصفات (نمط2) وصفات الصفات (نمط3) الخ. كذلك أدخل رسل تقسيم الأنماط إلـــى رتـــب. وليست نظرية الأنماط سوى واحدة من المناهج لإزالة التناقضات عن الأبنيـــة في نظرية التعدد والمنطق الصوري.
(الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، بيروت دار الطليعـــة، ط4، 1981، ص536). (المترجم).

[3] حساب القضايا (Calcul des Propositions)، النسق المنطقـــي (أنظـــر الحساب) الذي يشكل الإستدلال القائم على علاقات صادقة بين القضايا التـــي ينظر اليها في تجريد عن بنائها الداخلي القائم على الموضـــوع والمحمـــول، (الموسوعة الفلسفية، ص182). (المترجم).

المنطقي للملفوظات(énoncés) والتي كانت حتى اللحظة عـصية على التناول.

ج. أفق جديد

- **اللغة في موضع المتهم:** إذا كان اللجـوء إلـى التحليـل المنطقي يسمح بتفسير، وحتى تبرير "جذرية" البدايات، فإن المكانة والدور الذي تبوأته اللغة وسؤال الدلالة، هو ما يسمح بالحديث- في شأن فلسفة اللغة الجديدة- عن انقلاب فعلي.

وقد عرفت الفلسفة الكثير من الإنقلابات في خلال تاريخهـا، فبعد الدوام المديد والبطيء للأرسطية داخـل الفلـسفة المدرسـية (السكولائية) وتبعية الفلسفة للاهوت أتى ديكارت ليقـوم بـالقطع ويحرر الفلسفة من الوصاية المزدوجة للاهوت والقياس المنطقـي (syllogisme)، ويؤكـد علـى حـق الفلـسفة فـي الإبـداع (I´invention). وبعد قرن تقريباً، أتى "الإنقـلاب الكـوبرنيقي" لكانط ليشيد المبادئ القبلية للمعرفة ويضعها في صـف الـشروط المكونة للموضوعات التي تستتبعها لنفسها. وما يمكن ملاحظتـه، أنه وإلى منعطف القرن(العشرين)، لم تكـن اللغـة موضـوعاً أو صانعاً الإنقلاب المقترح. بل العكس، كانت(أي اللغة) في منأى عن النقد الأكثر جذرية.

والحال، فإن التحليل المنطقي الذي نزعم إخضاع اللغة له من الآن وصاعداً، يُظهر في ذاته إبهامـاً لا يقبـل الـشك ومـصدراً للأخطاء غير المدركة الآن، داعياً إلى نقده ومطالباً بإصلاحه.

- **أفول التمثيل**(le déclin de la représentation)[1]:

كشف الاهتمام الجديد باللغة بأن سؤال الدلالة أكثر جوهريـــة من ســـؤال التمثيـــل، وأن التمثيـــل لا يـــصنع اقتـــصاد العلامـــة (l'économie du signe)، ويقتضي الأمر إذاً، ومن أجـــل فهـــم كيف يقوم الذهن (L'ésprit) بالتمثيل ببساطة، أن نفهم أولاً كيـــف تقوم العلامة بالدل (comment le signe signifie).

والحال، ارتقت اعتبارات العلامـــات (La considération des signes) إلى مصاف "الفلسفة الأولى"، وأعيد صوغ الأســـئلة التقليدية «الكلاسيكية» للفلسفة، وأصـــبح المنطـــق(La logique) الأداة المفضلة للبحث.

3. فلسفة أو فلسفات اللغة؟

أ. وحدة برنامج

تمتاز فلسفة اللغة إذاً عن الفلـــسفات الـــسابقة بـــــ: طبيعـــة المشروع وخصوصية الطريقة. وهو ما يميزها أيضاً عـــن التيـــار الظاهراتي(courant phénoménologique) المعاصر بـــدوره. فمن دون شك تطرح الظاهراتية للوهلة الأولى سؤال الدلالة ولكـــن كي تنصرف إلى التحليل ووصف الافعال والتي بواسطتها يـــضفي

---

[1]- Représentation (التمثيل): بعبارات ماك كاي "كل بنية(مثال أو صورة أو أنموذج) مجردة كانت أم ملموسة، تهدف سماتها إلى ترميز أو إقامة توافق بمعنى من المعاني مع بنية أخرى". (نقلاً عن ترجمة د. أحمد الصمعي لكتاب أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، بيروت، المنظمـــة العربيـــة للترجمـــة، 2005)، ص456. (المترجم).

الـــوعي القـــصدي علـــى العلامـــات(signes) دلالتهـــا (signification)، من منظور يبقى خاصاً بفلسفة الوعي أكثر منه باللغة.

فلسفة اللغة، في المفهوم المحدد(الضيق) تتميز بكونها تيـــاراً فكرياً يتحدد بامتلاكه وحدة مشروع وطريقة (Unité de projet et de méthode) ويشكل منذ منعطف القرن إحدى نقـــاط الأوج في البانوراما الفلسفية.

ب.... في تنوع المساهمات

بيد أن هذه الوحدة، الحقيقية إلى حد ما، تبقـــى نـــسبية فـــي الفلسفة، كما في أي حقل آخر، تخضع المشاريع للتعديل والتطوير، وتتنوع الطرائق وتضبط أكثر وتتحدد المنظـــورات، مـــن دون أن يسود عدم الإنسجام أو اللغو. ولا يعود غريباً أن مؤلفين متباعدين في الظاهر، مثل فريجه (frege) وأوســـتن (Austin) وكارنـــاب (Carnap) أو سيرل (Searl)، ينسبون أنفسهم لفلسفة اللغة.

وهذه ليست إلا إشارة إلى أن المحاولات الأولى فـــي "علـــم الدلالـــة المنطقـــي"(La sémantique logique) وصـــولاً إلـــى المساهمات الأكثر راهنية للتداولية (La pragmatique) تُعبر عن إشكالية متماسكة ولكن بتشعبات متعددة. مُنظمِـــة (أي الإشـــكالية) التنوع في المساهمات وخليط النصوص في داخل وحدة البرنـــامج، والذي يعود إلينا إعادة تركيبه في تماســـكه الـــداخلي وتطوراتـــه المتعددة، ملتزمين جانـــب وضـــوح العـــرض واحتـــرام تطـــور الإشكاليات عوضاً عن التتبع الزمني للمؤلفات.

ج. جردة

وفاقاً لما سبق، يبدو ملائماً لإيضاح التمايزات تبني الحل الآتي: نتحدث عن فلسفات للغة لوسم المقاربات السابقة على "المنعطف اللغوي" ونخصص الإصطلاح "فلسفة اللغة" للمساهمات اللاحقة على "المنعطف اللغوي" والتي تنسب نفسها له وترتبط به. لأن تعدد المساهمات يسمح باستشفاف وحدة برنامج وترابط إشكالية، وحتى بعض التقارب في الطرائق، لا نظير له في الفترة السابقة.

2. في مصادر "المنعطف اللغوي"

1- الوضع في منعطف القرن

كي تولد فلسفة اللغة كما نعرفها اليوم، وجب تضافر ثلاثة شروط: الأول، أن يطرح سؤال اللغة والدلالة مجدداً على نحو جذري، والثاني أن يُطرح في عبارات جديدة أو حسب متطلبات جديدة، والثالث، أن يرتدي طابع الإلحاح المحض بحيث يحشد مفكرين من آفاق مختلفة حول المشكلة نفسها. والحال، إجتمعت هذه الشروط الثلاثة في منعطف القرن(العشرين). وفي أواخر القرن التاسع عشر وقعت سلسلة من التغيرات في حقل المعرفة، بشرت بإعادة تشكيله.

أ. بلبلة الميتافيزيقا

إن الريبة المتنامية بإزاء الأنظمة الميتافيزيقية الموروثة من الفلسفات الكلاسيكية والحديثة والتي عمرت طويلاً بواسطة الكانطية والهيغيلية خصوصاً، هي التي عرضت سؤال المعنى لنار النقد. إذ ارتفعت أصوات من كل الأنحاء للتنديد بالجدل الفارغ والخال من المعنى في الأنظمة الكبيرة المنتمية إلى الماضي. وحتى عند كُتاب، على غرار بيرس(Pierce, 1914- 1852)، اعتبروا إنه لا يمكننا ولا يجب علينا استبعاد الميتافيزيقا، وألا نقبلها بعد إلا إثر إصلاحها كما ينبغي، وذلك في نقطتين:

أ. ضمان أفضل للتحقيق الميتافيزيقي

إصلاح يتعلق في المقام الأول بـــ "المصدر" الذي تصدر عنه الميتافيزيقا، ولا يعود علينا من الآن وصاعداً البحث عنه في حدس فلسفي مميز، على طريقة ديكارت، بل في تحليل منطقـــي للفكـــر، أمين في هذا من دون شك للإلهام الكانطي، ولكن متسلحاً بـــأدوات منطقيّة لا يمتلكها.

ب. ...وطرائقه

إصلاح يمتد إلى طرائق الميتافيزيقا من خلال استلهامها تلك الخاصة بالعلوم الوضعية. بمعنى أن نضع فـــي مواجهـــة التوجـــه التأملي(spéculative) للميتافيزيقيا القديمـــة، التوجـــه الوضـــعي لميتافيزيقا محددة في طموحاتها وادعاءاتها بحواجز ثلاثة: المنطق (La logique) والمراقبـــة (L´observation) والتجربـــة (l´expérience). وعندها تكف قيمتها ان تكون مثابة تبرير وحيد لنظام العالم، كي تكون ضامنة للطابع الشرعي والعملياني فـــي آن لمساراتنا المعرفية الموجهة نحو المعرفة والفعل.

ب. تحولات العلوم الصورية

هذا المنطق، الذي هو أحد النوابض(المحركـــات) الرئيـــسية لإصلاح الميتافيزيقا يجد نفسه في الآن عينه في خضم إنقلاب.

أ. الطابع الرياضي المتزايد

أولاً، بتأثير تضافر جهود كـــل مـــن: دي مـــورغن (De Morgan) وبول(Boole) وبيرس خصوصاً، تخلى المنطق علـــى

نحو متزايد عن نموذج قواعد اللغة (le modèle grammatical) لمصلحة النموذج الرياضي (le modèle mathématique) ففـــي اللحظة التي أقرّ فيها بأن الشكل القانوني لتحليل الحكم "s" هـــي "p" (كل "و" هي "ح"، بمعنـــى و=موضـــوع (sujet) وح = محمـــول (prédicat) غير عملية في كثير من الحالات، بدءاً مـــن أحكـــام "العلاقة" (Relation)، كان إتجاه المناطقـــة نحـــو الرياضـــيات، المتآلفة أكثر مع هذا النوع من الملفوظات.

ب- النزعة المعادية لعلم النفس

وفي الوقت نفسه، كانت محاولات تقعيد المنطق على أســـسه الخاصة به، بتمييزه قدر الإمكان عن علم النفس، لدرجة وســـم أي شرح لقانون أو عملية منطقية- رياضية استعارت، ولو قلـــيلاً مـــن علم النفس، بأنها غير مناسبة. من هذه الحركة المزدوجـــة، التـــي حررته من علم النفس وقربته من الرياضيات، وهي نموذج صارم وذو دقة علمية، بدا أن المنطق خرج معززاً.

ج- دور بيرس

سواء تعلق الأمر بتنقيح الميتافيزيقا، وبالتلازم معها المنطق، لا يمكن تجاهل الدور الحاسم الذي اضطلع به بيرس، ونـــدين لـــه أيضاً أنه بإدخاله فكرة علم عام لعلامات السيميوطيقا (الـــسيميائية= sémiotique علم العلامات) ساهم في خلق السياق الجديـــد الـــذي سيُمكن في داخله إعادة تعريف سؤال المعنى.

2. بروز سؤال جذري: ماذا يعني الدّل بالعلامات؟

أ. فكرة سيميوطيقا عامة

ندين لبيرس إدخال وفرض متزايد لما يمكن أن ندعوه "براديغم سيميوطيقي"، أي الإقتناع إن سؤال الدلالة (signification) لا يصح طرحه ودرسه إلا في سياق نظرية عامة للعلامات. وهذا يعني في نظر بيرس نظرية قادرة أن تتناول بشكل موحد غالبية العلامات، من أي طبيعة كانت.

أ- تعميم

في المقام الأول التعميم: بالإنتقال من اللغة إلى العلامة فإننا نمد سؤال الدلالة على مجمل الأنساق الرمزية، وهكذا، يمكننا توحيد حقل التحقيق حول مدلولية(signifiance) العلامات عموماً.

ب. جذرية

فسؤال معرفة ما هي العلامة قد تغيرت طبيعته بسبب تعميمه على مجمل العلامات. فبدلاً من التمييز بين العلامة الطبيعية والعلامة المتفق عليها(signe institué) حيث الأولى "تقلِد" الشيء المدلول عليه(signifiée)، والثانية تستند إلى الإصطلاح، أحل بيرس تحليلاً للدعوى السيميوطيقية (le procès sémiotique) يتوقف فيها عملياً التمييز عن أن يكون ملائماً:

طبيعياً كان أم إصطلاحياً. تبقى العلامة دائماً في قلب دعوى تتركب من عبارات ثلاث: أساس(un fondement) بواسطته العلامة هي علامة، المظهر أو الصلة الذي «تتقاطع» به مع

الموضوع(objet)، موضوع (أو شيئ) تحيل العلامة إليه، أو يحل محلهـــا، التعبيـــر[*] (interprétant) (# interprète) أو قاعـــدة بحسبها العلامة محددة في كونها علامة لهذا الموضوع.

ج. تقسيم السيميوطيقا

بما أن المسار السيميوطيقي يتمفصل في ثلاثة أبعـــاد، يـــنجم عن ذلك أن علم العلامات له ثلاث شعب: أولاً، دراســـة الـــشروط الصورية والتي بها على العلامة أن تكون علامـــة(قواعـــد اللغـــة الصورية grammaire formelle)، تالياً، درس مختلف الـــصيِّغ والتي بحسبها تحيل العلاقة- وفقـــاً لطبيعتهـــا- إلـــى موضـــوعها (المنطق)؛ واخيراً، درس الطريقة التي تحدد بها العلامة تأويلها أو تعبيراتهـــــا(ses interprétants) (البلاغـــــة النظريـــــة Rhétorique spéculative) والحال، فهذا التقسيم الثلاثي الـــذي أعاد تفسيره موريس (morris عام 1938)، أوجد التمييز الـــشهير بين "النحو"(علم المبنـــى)(syntax)، والـــسيمانطيقا(sémantique علم الدلالة)والتداولية(pragmatique)[1] والذي إنتصر في فلـــسفة اللغة المعاصرة وفَعَلَ على نحو ما تطورها الداخلي.

(*) أي الصورة الذهنية التي تصدر عن المعبِر interpret. (المترجم).

(1) يترجم د. عادل فاخوري مصطلح(Pragmatique) (Pragmatics) بعلم التداول، وهو مشتق من كلمة(pragmatism) التي تعني المـــذهب الـــذرائعي المعروف في الفلسفة وتفسير ذلك، أن هذا الأخير هو أكثر من ركز انتباهـــه على العلاقة بين العلامة والذين يستعملونها، وأكد على أهمية هذه العلاقة فـــي فهم النشاط الذهني. ←

ب. أثر "أزمة الأسس"

حـــصلت الأزمـــة بـــسبب اكتـــشاف "المتناقـــضات" (Antinomies) فـــي نظريـــة المجـــاميع (Théorie des ensembles) حديثة النشأة الخاصة بكانتور (cantor) وأدت إلـــى هز الثقة التي منحت للرياضيات.

أ. في ما يخص فلسفة اللغة

ذلك أن إعادة الصوغ الجذرية لمسألة الدلالة(والتي أتت منها فلسفة اللغة مباشرة) تجد جذرها في أعمال المناطقة والرياضـــيين الذين واجهوا في شكل واضح عدم إشتغال اللغـــة الرمزيـــة التـــي اعتبرت إلى وقتها نموذجاً في الوضوح والصراحة والدقـــة. هنـــا واقعة أساسية في التأريخ للفلسفة المعاصرة للغة: ليس بخـــصوص الأسئلة التي جيَّرتها لحسابها فحسب، ولكن في شأن المفاهيم التـــي إصطنعتها والطرائق التي استخدمتها. هذه كلها تحمل علامة هـــذا

←ويقول فاخوري إنه مع ذلك، من حيـــث أن(pragmatics) هـــو مـــصطلح خاص بالسيمياء، يجب عدم الخلط بينه وبين (pragmatism) .
أنظر د.عادل فاخوري، تيارات في السيَّمياء، (بيـــروت، دار الطليعـــة، ط1، 1990)، ص 81.
والحال، تعد التداولية مبحثاً من مباحث الدراسات اللسانية، يدرس كيفية فهـــم الناس وإنتاجهم لفعل تواصلي أو فعل كلامي في إطار موقف كلامي ملمـــوس ومحدد. وتميز التداولية بين معنيين في كل ملفوظ أو فعل تواصـــلي لفظـــي: الأول، هو القصد الإخباري او معنى الجملة، والثـــاني القـــصد التواصـــلي أو معنى المتكلم. (المترجم).

السياق الخاص في البروز، أقله حتـــى الأعمـــال التـــي أنجزهـــا فتجنشتين (Wittgenstein 1958- 1889) في طوره الثاني.

ب. ما أتت به

الأثر الأول والمباشر أنها جعلـــت المناطقـــة والرياضـــيين حساسين إزاء سؤال المعنى. وهذا لا يعني إنهـــم لـــم يعرفـــوه أو تجاهلوه في السابق. ولكن "المتناقضات" ظهرت بحدة بحيث أن لغة مُهذبة مثل الرياضيات وصارمة مثل النظام الإستنباطي لم تكن في منأى عن عدم الكمال وبقيت معرضة لإنتـــاج تعبيـــرات رُباعيـــة (Tératologique) ووجب في العقود التالية جهـــد مُعتبـــر فـــي التوضيح حمل على طبيعة العلامات وقواعد توليفها والعمليات التي يمكن تطبيقها عليهـــا، وشـــروط اليقـــين(أو الـــصدق) (vérité) وخصائص الأنظمة التي تتيح بناءها، باختصار حول مـــاذا يعنـــي الدل بالعلامات، (c'est que signifier par signes) وفي خلال هذه الورشة رأت النور بعض المقولات الأساسية وبعض المشكلات الجوهرية الخاصة بفلسفة اللغة.

ج. من السيميوطيقا إلى فلسفة اللغة

للإنتقال من الدراسة النقدية للأنظمة الرمزية، والتي اخـــذت مكانها، إلى فلسفة فعلية للغة كان ينقص إنجـــاز خطـــوة. خطـــوة تتلخص في توكيدين: الأول، أن العلامات لا تهم في حد ذاتها بقدر ما تحمل أو تُعبر عن أفكار أو مضامين فكر، ذلك أن القواعد التي نفرضها على إستخدامها وعلى اشتغالها هي في الواقع(de facto) مذهب علمي (discipline) نفرضه على الفكر، وبه ومن خلالـــه

تصبح المعرفة ممكنة فحسب. الثـــاني، أن دراســـة العلامـــات لا تنحصر في التحقيق المخصوص حول موضوع معطى (أو شـــيء محدد)، بل إنها أولية (principielle): ففي كل تحقيق، أن معرفة وفهم إشتغال اللغة التي تعلن المشكلة عن نفسها من خلالها هو في جانب منه حلها وأحياناً أخرى فضها.

ح. عودة المعنى، مشاركة فلسفية

نلاحظ التيارِّين الرئيسيِّين فـــي فلـــسفة القـــرن العـــشرين، الظاهراتيـــــة(la phénoménologie) والفلـــــسفة التحليلـــــة (la philosophie analytique) ولِدا بالتوالي في السياق نفـــسه وبمناسبة المشكلات نفسها. فمن جهة، إفتتح هوسرل (E.Husserl 1859-1938) في فلسفة الحساب(1891) نوعاً جديداً من الاســـئلة وسمه هو بكونه وصفا ظاهراتيا ومن جهة أخرى وضع فريجه (G. Frege 1848- 1925) في أسس علم الحساب(1884) ركائز علم الدلالة المنطقي (La sémantique logique) وبين الإثنين، إلتقاء على بضع نقاط(رفض الصورية، رفض- متأخر عنـــد هوســـرل- للنزعة النفسية، الإقتناع بأن، البحوث المنطقية الرياضية يمكـــن أن تؤدي إلى توضيح قوانين الفكر المحض)، وأيضاً إختلافات عميقة.

أ. الدرب الظاهراتي

مسار مؤسس ذلك الذي انتهجه هوسرل وطموحـــه الوحيـــد إيضاح موضوعه أي الرياضيات في زمنه.

وثمة وجهتا نظر ممكنتـــان فـــي هكـــذا مـــشروع: النظـــام (systéme) والعملية (opération) ومال هوسرل لهذه الأخيـــرة.

وعندما نقارب الحساب (l´arithmétique) من وجهة نظر العملية، لا يعود في مقدورنا فَصل مضامين الأفعال (les contenus des actes) ولا فصل تتابع (أو تسلسل) العلامات في خلال بروزها في إطار تجربة العد (L´expérience du compter).

والحال، فلا يمكن العثور على الأساس الوحيد في هندسة النظام العملياني وحده، ولكن يجب البحث في جهة الأفعال التي يستخدمها الوعي القصدي في هذا القطاع من تجربته. فهذه تُضفي في المقام الأخير على مثالات(idéalités) الرياضيات معناها. ففي هذه المكانة التي آلت إلى الذات (sujet)، يندفع هوسرل في درب فيلسوف الوعي ذي الإلهام الترانسندنتالي(المتعالي)، بدلاً من فلسفة اللغة.

ب. الدرب التحليلي

المنطق قبل كل شيء آخر: مال فريجه على العكس نحو وجهة نظر النظام. فريبته من علم النفس جعلته يُبعد أي إحالة إلى الذات، وحتى في وسم خصائص الفكر. فلا يهمه إلا تلك المكونة المنطقية المحضة للفكر، والتي تبقى واحدة رغم التعبيرات المتغيرة والتلوينات المتعددة التي يمكن أن يرتديها. الصدق (la vérité) وحده ما يهم المنطقي، وفي ترتيب الفكر الصوري، فأنها تستند بكليتها على صلاحية البرهان.

خلاصة: ليس "الخروج" من النظام هو ما يؤمن تأسيسه، ولكن الجهد في عدم ترك أي ابهام (Opacité)، في ما خص العناصر أو صيغ توالدها أو قواعد توليفها أو مبادئ تقويمها. يأخذ

التأسيس حينها مظهراً يختلف عن السابق: عند هوسرل، يفتـــرض الوصف الدقيق لأفعال الذات العارفة، ولا تلتزم عند فريجه بـــأكثر (ولا بأقل... أيضاً) مـــن بنـــاء لغـــة مثاليـــة(كاملـــة) (Langue parfaite). أخيراً، تبدو فلسفة اللغة المعاصرة الوريثـــة المباشـــرة لمشروع فريجه.

3. زمن الإصلاحـات

في بدايتها، أطلقت الفلسفة التحليلية[1] ريح الإصلاح العاصف على الفلسفة وكل القسمات التي ميزتهـا(قطـع مـع الميتافيزيقـا التقليدية، إبعاد علم النفس، أوليَّة العلامة، خضوع كل تحقيق لتحليل لغوي) حدَدَت ومن دون أدنى شك طريقة جديدة في التفلسف، وقـد تبدت مكوناتها المختلفة هذه في الأعمال المؤسـسة عنـد فريجـه (Frege).

1- ما هي اللغة المثالية؟

كانت إهتمامات فريجه خاصة بفيلسوف للعلوم، وخـصوصاً العلوم المنطقية- الرياضية. واذا إهتم باللغة، فبتلك التي كان بإمكان

---

(1) philosophie analytique تيار واسع الانتشار- متنوع إلى حد ما- يوحد جماعات واتجاهات وفلاسفة. كلهم يعتبرون مهمة الفلسفة تحليل اللغة. والفلسفة التحليلية أكثر انتشاراً اليوم في الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا... يدعو لها مؤيدو التجريبية المنطقية والبراجماتية الجديـدة: وكـوين، ن. غودمـان، ومورتون هوايت.

ما يميز معظمهم أن مركز الثقل ينتقل عندهم من المسائل المعرفية العامة إلى الأشكال والوسائل العينية لتحليل اللغة. ويمكن تمييز نهجين رئيسيين.

- بناء لغات "نموذجية" مصطنعة ذات بنيان منطقـي محـدد تحديـداً دقيقـاً (التجريبيون المناطقة، والبراجماتيون الجدد وعدد من التحليليين المـستقلين). وهذه الأبحاث تقوم على أساس المنطق والسيمنطيقا المنطقية.

- الدراسة التاريخية للغات الطبيعية القائمة (الفلسفة اللغوية). (المترجم).

العلم التعبير عن قضاياه بها، والحال، فإن لغة "من أجل العلم" لهـــا مقتضيات متشددة أكثر من لغة التواصل العادية. همها الوحيد هـــو الصدق (la vérité)، وعليها أن تقصي من داخلها كل مـــا يحـــول دون تحقيق هذا التطلب الأساسي.

أ. التغلب على نواقص اللغات المحليِّة

ذلك أن معظم الموارد التعبيرية في اللغات الطبيعية موسومة بأنها غير أهل بالثقة، بسبب الإبهام (opacité) الذي تـــضعه فـــي الخطاب، والتي على "اللغة من أجـــل العلـــم" أن تتخطاهـــا. ثمـــة مصدران مضران من الإبهام.

أ- الإبهام المرتبط بالدفق المعجمي

الغنى المعجمي إحدى ميزات اللغات الطبيعية، لكن هذا الغنى مصدر عدم دقة بسبب تعدد استخدامات العبارة. على سبيل المثال، تستخدم اللغة الطبيعية من دون تمييز العبارة نفسها للإشـــارة إلـــى تصور(الإنسان حيوان عاقل)، وإلى الفرد الإنسان الذي غزا بـــلاد الغول(La Gaule). عدم الدقة هذا يقود إلى غموض مزدوج: بين الفرد والتصور من جهة والأخطر بين تبعية(أو تعلق) التـــصورات (subordination de concepts)(الحالة الأولى)، وبين إشـــتمال (subsomption) أو إثبات هوية الفرد تحت تصور(الحالة الثانية) من جهة أخرى، وهي علاقات منطقية منفصلة.

ب- الإبهام مرتبط بمرونة التسلسل (التتابع)

تضاف إلى الشائبة الأولى شـــائبة أخـــرى مـــضرة أيـــضاً، مرتبطة هذه المرة بالتـــسامح فـــي المـــضمر (la tolérance à l'implicite) التي تظهرها اللغات الطبيعية، ومن آثـــار ذلـــك أن يترك في الظل، وحتى أن تخفي المحركات الحجاجية او البرهانيـــة التي تحكم تسلسل القضايا، ما يطعَن في صدقية النتـــائج المحققـــة. ستتميز "اللغة المثالية" التي ستستخدم في التعبير عن العلـــم بدقـــة العبارات التي ستكون موضوع تحديد بيِّن واستخدام واضح تحـــدده بدوره قاعدة بيِّنة. وعليها أيضاً أن تجعل بيَّنة العمليات التي تتشكّل بموجبها القضايا وتتولد الواحدة من الأخرى.

ب. المشروع الإيديوغرافي Idéographique (منظومة الكتابة الإيحائية)[1]

لتلبية هذه المقتضيات، على"اللغة المثالية" ان تكـــون فـــي آن إصطناعية ورمزية، فكل علامة، بحسب نمطها ستكون موضـــوع تحديد صارم وتخضع لقواعد دقيقة، فما هو مطلوب لغة صـــحيحة تعبر عن الأحكام، وتضمن اليقين بقدر من الوضوح التام. ولهـــذا

---

[1] Idéographique، منظومة الكتابة الإيحائية ويرمز من خلالهـــا للكلمـــة بعلامة واحدة غريبة عن الأصوات التي تكوّن الكلمة نفسها، وهذه العلامة إنما ترجع إلى كلية الكلمة، ومن هنا إلى الفكرة التي تعبر عنها بشكل غير مباشر. إن النموذج التقليدي لهذه المنظومة هو الكتابة الصينية. فرديناند ده سوســـرُ، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، (لبنـــان، دار نعمان للثقافة، 1984)، ص 42. (المترجم).

السبب، فإن الرمزية التي انشأها فريجه هي الكتابـــة الايحائيـــة(أو التصويرية).

أ. من الرمزية إلى منظومة الكتابة الإيحائية

اللغة الإيحائية عند فريجه ستكون رمزيـــة بطبيعـــة الحـــال (الوضوح والدقة) وأكثر صرامة فـــي إلزامهـــا مـــن الرمزيـــات الموجودة وتحديداً جبر بول(Boole)[1].

أدخل فريجه في رمزيته متغيرات من الافراد(غائبة في نظام بول) وعزز لزوم حفاظ المعنى على نفسه، مانعاً أية علامـــة مـــن تلقي تفسيرين، كما هو الأمر عند بول، حيث أن العلامة(+) تـــشير إلى عملية الجمع الحسابي، أو المجموع المنطقي. المكسب اذاً هـــو

---

[1] ترجع بدايات "جبر المنطق" إلـــى الرياضـــي الإيرلنـــدي جـــورج بـــول (1815-1864) الذي اراد إقامة المنطق على نموذج علم الجبر، وقد استطاع بذلك فتح الطريق أمام ولادة المنطق الرياضي. ولأجل ذلك، قام بـــول بعـــدة خطوات لعل من أهمها: استخدام الحـــروف الهجائيـــة كرمـــوز للأصـــناف، والاصناف عند بول بديلة عن الحدود في المنطق الصوري.
- الاستعانة بالعمليات الحسابية كالجمع والضرب.. الخ، في إقامة المعـــادلات المنطقية.
- إقامة القضايا المنطقية على صورة معادلات جبرية تعبر عن مساواة بـــين طرفيها.
للتوسع، أنظر، رشيد الحاج صالح، المنطـــق واللغـــة والمعنـــى فـــي فلـــسفة فتجنشتين(دمـــشق، دار كيـــوان للطباعـــة والنـــشر، ط1، 2005)، ص 19. (المترجم).

في آن الدقة والموارد التعبيرية. وقد أدخل فريجه أيضاً إلى لغتـــه وظائف ذات طبيعة ثانوية، مطلوبة للتعبير عن الأحكام التي تحمل عدداً (nombre)، وفي وسعها معالجة وجودها بمواردها التعبيرية والتوليفية. تقرن اللغة الإيحائية ســمتين: أنهــا عمليــة حــسابية (calcul) وصُوَّرَ (رموز)(Caractéristisque).

ب- الكتابة الإيحائية حساب

إنها عملية حسابية بسبب الطابع الآلي (نقول اليوم الحــساب Algorithmique) لتسلسل القضايا الذي تجيــزه وتــتحكم فيــه. فالتطبيق المتكرر لعدد متناه من القواعد فــي شــطر متنــاه مــن المراحل يتيح "حساب المتواليات" (calcu de la conséquence) الذي يجعل صحيحا خلال البرهان، قضايا تولدت من جراء النظام. لكن هذا الطابع يبقى متلائماً مع مفهوم "صوراني" للرمزية، يــرى فيها محض لعبة على الرموز، وهو المفهوم الذي يرفضه فريجــه بقوة.

ج. الكتابة الإيحائية رموز(صُوَّر)

ستكون الإيديوغرافيا (الكتابة الإيحائية) عند فريجه من دون فائدة إذا اقتصرت على كونها لعبة على الرمــوز. إنهــا بــالحري التعبير عن الفكر بوساطة الرموز. لأن صيغ اللغة الإيديوغرافيــة تملك معنى(sens) ودلالة أصلية(ذاتية)(dénotation)، إنها تُعبــر عن أفكار، وبهذا وحده تحقق الهــدف المنــشود مــن المــشروع الإيديوغرافي، أي التعبير عن "قوانين الفكر المحض".

2. مساهمة فريجه في علم الدلالة المنطقي

ما أضفى على فريجه صفة "الأب" في التراث التحليلي ومرجعاً أساسياً في فلسفة اللغة ليس تحقيقه الجزئي لتحديد تقييد في "اللغة العالمية" (أو العامة) (caractéristique universelle = الخصائص الكلية) بل تفكره المنطقي الذي قاده إلى إقامة تمييز تصوريٍّ جديد، ما تزال خصوبته تثبت نفسها في أعمال الذرائعية المعاصرة (أو التداولية)[1].

أ. دالة (fonction) وتصوّر (concept)

أ. تجاوز أرسطو

نذكر تحليل القضية في المنطق الكلاسيكي(الصوري)، إذ تتضمن موضوع ومحمول، يُسميّان المفاهيم.

ويمكن لهما أن يتبادلا الموقع في داخل القضية: فعبارة "الإنسان" يمكن أن تظهر مثابة موضوع في "الإنسان فانٍ" وتظهر مثابة محمول في"اليونانيون هم أناس".

---

(1) الذرائعية(التداولية) المعاصرة (أو الحديثة) هي التي تجمع بين الذرائعية والوضعية الجديدة والمثالية اللغوية (التحليلية اللغوية عند ل. ف. فتغنشتين. والاجرائية عند ب. و. برجمان. والتفسير الذرائعي للمنطق الشكلي عند س. آي. لويس ور. كرناب وو. كواين) ومبدأ الذرائعية في الفكر عند تحديد قيمة الصدق بفائدته العملية. أنظر الموسوعة الفلسفية. إشراف روزنتال. ترجمة سمير كرم، (دار الطليعة. بيروت. ط4. 1981 ص [illegible] الذرائعية).

وهنا نجد أحد محركات القياس. والحال، ولأن فريجه لم يعد ينطلق من المفاهيم ولكن من القضية، ويقر بوجود قـضايا أخـرى غير تلك الخاصة بمقولات أرسطو، فإنه لم يعد يقبل هذا التحليل.

ب. تحليل جديد للقضية

عند فريجه، قضية مثل "سقراط هو فان" تُحلل في قسم ثابت ولكن غير مكتمل"... هو فانٍ" هـو الدالـة (Fonction)، وقـسم متحرك يمكن له أن يملأ المكان الشاغر للدالة، بما يتيح الحـصول على قضية في مثالنا، "...هو فانٍ" للدالة بدليل، وبخصوص قيمـة (valeur) سقراط في هذا الدليل، فإن الدالة تعبر عن قضية يقينية. في هذه الدالة، حيث القيمة دائماً قيمة اليقين، هي ما يسميه فريجـه تصوّر (concept).

ب. المعنى والدلالة الأصلية

أ. مشكلة أحكام الهوية

أثناء نظره في مقولة المساواة في معنى الهوية توصل فريجه إلى اقتراح هذا التمييز. فأحكام الهوية تأخذ شكلان: "أ = أ" و "أ = ب"، الأولى لا تمثل أي مشكلة لأنها تساوي الشيء مع نفسه، أمـا الثانية فإنها أكثر إفادة وأدق في التناول. أكثر إفادة لأننـا نمنحهـا قيمة فعلية في نماء المعرفة: ففي الواقع، إن حكم "نـابوليون هـو المنتصر في إيانا": يُعلمني أكثر حول نابليون من الحكـم البـسيط "نابليون هو نابليون". وأكثر دقة، لأننا نجد في جانبي العلامـة "=" تعبيرين مختلفين، والسؤال هو معرفة على ماذا تُحمل المساواة؟

ب. تحليل فريجه

إذا تمسكنا بأن، المساواة تُحمل على العلامات المأخوذة على أنها مجرد علامات تصويرية،(graphiques)، فإننا لا نضع في الحسبان الطابع الإخباري (Informatif) للحكم. إذا قلنا إن المساواة تُحمَل على موضوعات تدل على نفسها بـ "أ" و "ب"، في حين "أ = ب" لا تقول شيئاً غير أن "أ = أ". في الواقع، يتضح أن التعبير "أ = ب" لا يكون شرعياً وإخبارياً إلا بشرط الإقرار أن العلامات "أ" و"ب" تدل (تقرر) حقاً على الشيء نفسه، ولكن لهما "معاني" مختلفة.

الهوية قد أقيمت، لأن الدلالة الذاتية متطابقة في الحالتين، والطابع الإخباري قد أُعطي باختلاف معاني التعبيرات المستخدمة. كما نرى في المثال الشهير "نجمة الصباح هي نجمة المساء"، التي تحمل معلومتان عن الجسم السموي نفسه.

في كل علامة علينا أن نقُرن معنى ودلالة أصلية (dénotation)، فالمعنى يتصف كما يقول فريجه بأنه "صيغة منح الإحالة (المرجع أو الإسناد) (mode de donation de la référence).

ج. جردة

ببَسط التحليل الدالي (l'analyse fonctionelle) على اللغة، فتح فريجه درب علم الدلالة المنطقي الذي يمكن تطبيقه وإنجازه على اللغات الطبيعية. ولن ينسى ورثتُه البعيدون ذلك أبداً.

4. الورثة المباشرون رسل وفتجنْشتين

وجدت أعمـــال فريجـــه إمتـــداداً لهـــا فـــي عمـــل رســـل (B.Russel 1970-1872) وبدأ ميراث المنطقي الالماني يـــؤتي ثماره ويعدل مساره في آن. أثمر بفضل استئناف رســـل ووايتهيـــد (Whitehead 1948-1861) لاحقاً للبرنـــامج المنطقـــي والـــذي ذَهّبـــت بـــه مبـــادئ الرياضـــيات (1913-1910) (principa mathematica) إلى أبعد ما يمكن. وقد عدل في المـــسار مبينـــاً خصوبته أبعد من المجالات التي تدخل فيها فريجه. ما يفسر جزئياً إنتقائية رسل، واهتمامه بنظرية المعرفة، واقتناعه فى كل أبحاثـــه بأن افضل دليل للتحليل المفهومي هو المنطق الجديد.

1- من المنطق إلى المعرفة

تمثل نظرية المعرفة، ضـــمن الأعمـــال الـــضخمة لرســـل، موضوعاً متكرراً ومثابة خيطاً موجهاً.

فمن الأعمال الأولى في المنطق الرياضي ظهر الإقتناع بأن التحليل المنطقي يتجاوز في مداه ميدان الرياضيات وحده والمنطق المحض، ولكنه يَهُم في المقام الأول العلم والفلسفة، فكل واحد منهما يجهد على طريقته لتحقيق معرفة العالم: العلم بوســـاطة النظريـــة والشرح الناموسيِّ (Nomologique)[1]، والفلسفة باقتراحها على

---

[1] (Nomos) الناموس.أي الإعتقاد بأنه موافق للحقيقة، معتـــرف بـــه مـــن الجميع. يشير إلى ما هو متوافق مع القاعدة. (المترجم).

النحو الإفتراضي مفهوماً للعالم يُدرج المساهمات المتعاقبة للعلـــوم الوضعية ويعتبر نفسه امتداداً لها.

إقتنع رسل بأن المشاكل الكبـــرى التـــي تواجههـــا الفلـــسفة الكلاسيكية في شكل جدالات زمنية(الواقعية ضد المثالية، الواحديـــة ضد التعددية، المادية ضد الروح... الخ) يمكـــن إعـــادة صـــوغها وتوضيحها باللجوء إلى التحليل المنطقي الذي يبرهن بأن كثيراً من مواقف الفلسفة التقليدية أتت نتيجة مباشرة للقواعـــد الـــسيئة للغـــة (mauvais grammaire).

أ. وسائل الإصلاح

أ. شفرة (أو مبدأ) أوكام (Le Rasoir d'ockham)

إن القواعد السيئة للغة هي التي قادت، في الواقـــع، الفلـــسفة الكلاسيكية إلى التيه الميتافيزيقي، وخصوصاً في مسألة الأنطولوجيا (نظرية الوجود). إذ أن قواعد اللغة قادتنا إلى التفكير أن جملاً مثل "سقراط فيلسوف"، "أوليس واسع الحيلة"، "المربـــع الـــدائري غيـــر موجود"، هي عبارات تُسنِدُ صفة إلى الموضوع. ما يلزمنـــا بـــأن نعتبر سقراط وأوليس والمربع الـــدائري موجـــودات(أو كيانـــات) (entités) من الطبيعة نفسها وموجودة جميعها.

وفي مواجهة هكـــذا زيغـــان، أعـــاد رســـل تفعيـــل المبـــدأ "الأوكامي"[1] القديم الذي يوصي "بعدم مـــضاعفة الموجـــودات(أو

---

[1] نسبة إلى وليام أوكام، لاهوتي وفيلسوف إنكليزي من القرن الرابع عـــشر، اشتهر بمقولته "ينبغي أن لا يلجأ إلى الكثرة والتعـــدد مـــن دون ضـــرورة"←

الوحدات) من دون ضرورة"، وسيجد ذلك تعبيره وتطبيقه الأولـــي في نظرية الأوصاف (La Théorie des descriptions).

ب. نظرية الأوصاف

صيغت النظرية لأول مرة عام 1903، وعدلت عـــام 1905 في المقال الشهير "في الدلالـــة" "on denoting" والـــذي أصـــبح "نموذجاً للتحليل". واجهت نظرية الأوصاف سؤال تثبيت الخطـــاب المنطقي في الواقع بوساطة تحليل "التعبيرات ذات الدلالة الذاتيـــة" (expressions dénotantes). الإشارة إلى شيء (موضوع) تأخذ طريقين: إسم العلم (le nom propre) الذي يشير إليـــه مباشـــرة (اليزابيت)، والوصف الذي يعطي سمات تصورية (ملكة انجلترا). ولكن كيف يمكن الأخذ في الحسبات تعابير مثل 1- "المربع الدائري غير موجود"، 2- "والملك الحالي لفرنسا أصلع"؟

يتعلق الأمر بملفوظات (énoncés) حيث يظهر تعبير "فلان وفلان" (le tel et tel) الذي يبدو أنه مُحمل بحمولة مرجعية فـــي إشارته إلى الوحدة المعنية والتي هي في الوقت نفـــسه "موضـــوع" القضية. ولكن الحال ليس كذلك. لأن تعبير "فلان وفـــلان" يمكـــن استبعاده من خلال شرح مُسهب يوقع الإشتغال المنطقي في حيرة. ففي المثال الثاني الآنف الذكر "يوجد فرد واحد، هو ملـــك حـــالي لفرنسا وأصلع في آن". لكن، وبما أنه لا يوجد "ملك حالي لفرنسا"، فإن الرابط كاذب، من دون الحاجة إلى المصادرة على "وحدة غير

→(on ne doit pas multiplier les entités sans nécessités) وهـــي المقولة التي عرفت باسم "شفرة أوكام".

موجودة" كموضوع للقضية. فمسألة التعيين (الإشارة) تتحول إلـــى تحديد مسار قيم المتغير، من دون المطالبة بفرضـــية أنطولوجيـــة (وجودية) محددة.

ب. تعديلات

أ- أسماء العلم والأوصاف

لكن ما العمل عندما يظهر مكان الوصف تعبير ينتسب إلـــى فئة أسماء العلم(nom propre) مثل بيغاس (pégase)؟

لا شيء قد تغير في الأساس، يقول رسل: فكل ملفوظ يأخـــذ بيغاس موضوعا يمكن تحليله في "س مثل س حصان مجـــنح"، أي أنه لا يشير إلى أي موجود (entité) من أي طبيعة كـــان. فاســـم العلم اذاً ليس إلا وصفاً مبتوراً، يمكن استبعاده بالتحليل المنطقـــي. فلا يبقى اذاً (أقله موقتاً) في صف "التعابير ذات الدلالة الذاتيـــة" إلا "أسماء العلم المنطقية" وحدها، رموز تحيل مباشرة إلـــى موجـــود (entité) قائم ومُعطى في تعبير مباشر مثل "أنا" أو "ذاك".

ب. المنطق ومبحث علم الوجود (الأنطولوجيا)

تُبين نظرية الأوصاف أن التحليل المنطقي يمكـــن أن يكـــون عامل إقتصاد أنطولوجي بكشفه عن البُعد القائم بين قواعـــد اللغـــة السطحية لملفوظ ما وبنيته المنطقية العميقـــة. فـــي الأنطولوجيـــا المتكاثرة التي يظهر أن اللغة المستخدمة قد استقرأتها (من استقراء) (induit)، وقامت الفلسفة التقليديـــة بالمـــصادقة عليهـــا، وأدخـــل

المنطق مبدأ ثميناً في "الإقتصاد في الفكـــر" (parcimonie) (أي تقليل الموجودات).

ولكن يظهر في الوقت نفسه نوع من تقييد للمنطق: فإذا كان في وسعه أن يبين لنا ما ليس مفترضاً وجوده، فلا يكفـــي وحـــده ليُحدد نهائياً "ما هو موجود". ولتناول هذا السؤال يجب الإنتقال من المنطق المحض إلى نظرية المعرفة والتي بحسبها على المنطق أن يتحالف مع الحس المشترك، كما مع الفيزياء وعلم الـــنفس، كـــي يحكم لمصلحة ما ثبُت لدينا في قضية المعرفة وفي مختلف الصيغ التي تُثبت نفسها فيها. يُغطي هذا البرنامج في جزء منـــه الذريـــة المنطقية.

2ـ الذرية المنطقية (L'Atomisme Logique)

ليس بعيداً من الصواب تقديم الذرية المنطقيـــة علـــى أنهـــا محاولة لإنشاء ميتافيزيقا(بمعنى "مفهوم عن العالم") لا تُعيبها اللغـــة العادية، أي أنها تعرف تجنب التكـــاثر الأنطولـــوجي وغمـــوض الأنظمة القديمة. لهذا الغرض، يجب الأخذ في الحسبان في قـــضية المعرفة ما هو معطى وما هو مستنتج، مع الوقوف فـــي الحـــالتين عند ما هو "نهائي"، أي لا يمكن تبسيطه أكثر (أو اختزاله).

أ. وقائع وقضايا

أ- ماذا يعني أن "تعرف"؟

ما نعرفه هو الوقائع(des faits) والواقعة لها مكونات وبُنية، ويعبر عنها في قضية. "سقراط مات" تُعبر عن واقعة، مكوّناتهـــا: سقراط(مُفرد) وخاصية تُناسب هذا المفرد. والواقعة تجعل القـــضية

حقيقية. وعدد مختلف من القضايا يعبر عـــن وقـــائع ذات طبيعـــة مختلفة: "سقراط ليس بيننا" (واقعة سلبية) «كـــل البـــشر فـــانون» (واقعة عامة)؛ "جان يعتقد أن سكوت هـــو مؤلـــف "Waverlay" (واقعة إعتقاد)... الخ. وأبعد من هذا التمييز، فإن علاقـــة الوقـــائع بالقضايا، وطبيعة هذه الأخيرة هي ما يهمنا هنـــا. وحـــول هـــاتين النقطتين يستعيد رسل من فتجنشتين فكرتين رئيسيّتين.

ب. إستعارة من فتجنشتين

- القضايا ليست أسماء، ولكنها رموز لوقائع. أنها تعبـــر عـــن وقائع، ولكنها لا تشير إليها. ففي مقابل كل واقعة هناك قـــضيتان، واحدة تجعل منها حقيقية(صادقة)(Vraie)، وأخرى تجعـــل منهـــا كاذبة(Fausse) فالصلة القائمة بين القضية والواقعة إذاً من طبيعة مختلفة عن تلك التي تربط الإسم بمسمّاه.

- يوجد هوية بُنية(identité de structure) بين الواقعة ورمز الواقعة. وهذه الهوية التي ترافق مجمل القضايا من أي نمط كانـــت تُلزمنا التسليم بأن العالم مُركّب موضـــوعياً (complexe) وهـــذا التركيب معكوس في القضايا المركّبة، شـــريطة أن تنتـــسب هـــذه القضايا إلى«اللغة المثالية» (Langue parfaite).

ج- «اللغة المثالية» عند رسل

تملك ثلاث خصائص رئيسية تميزها عن اللغة العادية:

- كل كلمة في القضية تتناسب مع مكوّن واحد فـــي القـــضية المُقابلة، بإستثناء العبارات المنطقية "و"، "أو" "إذا... مع أن"، حيث الوظيفة مختلفة.

- هكذا لغة هي تحليلية بالكامل، تظهر بنظـــرة واحـــدة البنيـــة المنطقية للواقعة مُؤكَّدة أو منفية.

- أنها لغة نحوية محضة. مثل تلـــك التـــي ســـمحت "مبـــادئ الرياضيات" بإنشائها. ما يجعلها جديرة بأن لا تُعد لغة، بسبب غياب المفردات. ولكن يكفي، في الواقع، إضافة مفردات إلى هكـــذا لغـــة للحصول على لغة منطقية مثالية.

ب. تحليل وفلسفة

تحليل وفهم: عند رسل، لا تنحصر مهمة الفلسفة في التحليل فحـــسب، فهـــي تبقـــى فـــي خدمـــة مقـــصد جـــامع (visée compréhensive) يجب أن يسمح بصوغ رؤية مترابطة للعـــالم، مثابة امتداد للمعارف الجزئية التي تضعها العلوم في تصرفنا. كيف يسمح التحليل بذلك؟ يشير لنا نص من عام 1924 "الذرية المنطقية" بـــذلك: "علـــى الفلـــسفة أن تكـــون جامعـــة (أو شـــاملة) (compréhensive) تملك جرأة صوغ فرضيّات خاصة بـــالكون، مع أن العلم ليس في وضع تأكيدها أو دحضها".

والحال، ففي خدمة هكذا فرضيات يعمل التحليل، لأنه يسمح خصوصاً: "(...) بنقد وتوضيح المقولات التي نعتبرهـــا أساســـية ونخاطر بقبولها من دون نقد، مثل روح، مادة، وعـــي، معرفـــة، تجربة، سببية، وقت". هدف التحليل هو الـــسماح باســـتبدال هـــذه المقولات الغامضة ببنى منطقية "تقبض" على السمات الرئيسية من دون غموض، بطريقة تعلي من شأن رؤيـــة مترابطـــة، لا تـــزال مفترضة للكون. ومن هذا التوسيع "الميتافيزيقي" للتحليل، ســـيميّز

فتجنشتين نفسه في "**الرسالة المنطقية الفلسفية**" (1921) (Tractatus logico- philosophicus) مع تبنيه لبعض أطروحات الذرية المنطقية.

3- الرسالة المنطقية الفلسفية

يشغل فتجنشتين مكاناً متميزاً في الفلسفة المعاصرة. درس الهندسة وتتلمذ على رسل وعمل معه، حاور مناطقة حلقة فيينا[1]، ووضع في"الرسالة"أولى أفكاره، المؤلّف الذي حياه رسل كحدث فلسفي.

أ.حَل الميتافيزيقا

أ. خط العَلام

أخذ فتجنشتين مسافة من أطروحات رسل نفسها، وتجلى ذلك في مفهومين شبه متعارضين للممارسة الفلسفية. ففي الواقع، إن تحليل اللغة الذي روّج له رسل يسمح بإيضاح اشتغالها، فإن فكرة

---

[1] حلقة فيينا (cercle de vienne) جماعة تكوّن المركز الفكري والتنظيمي للوضعية المنطقية. تطورت الجماعة من حلقة دراسية عام 1922 أسسها شليك بقسم فلسفة العلوم الإستقرائية بجامعة فيينا. ورثت الجماعة أفكار نزعة ماخ كما تقبلت كثير من أفكار فتجنشتين وخصوصاً مفهوم التحليل المنطقي للمعرفة، ومذهب الطبيعة التحليلية للمنطق والرياضة، ونقد الفلسفة التقليدية باعتبارها لغواً.
في عام 1929 نشر كارناب ونيورات وهان بياناً عنوانه "العلم الكلي لجماعة فيينا"، ما أكسبها شكلاً منظماً ومحدداً. انظر، الموسوعة الفلسفية، ترجمة كرم، ص166. (المترجم).

ميتافيزيقا خاضعة للإصلاح بقيت هي الأفق، مُوكّلة للفلسفة مهمتها في آن، تلك المتميزة من العلوم. بيد أن تحليل اللغة والفهم الواضح لاشتغالها قادا فتجنشتين إلى حلّ الميتافيزيقا، فبحسبه، وحدها علوم الطبيعة تحمل خطاباً معقولاً عن العالم. وكل محاولة أخرى، ومن ضمنها الميتافيزيقا، تخرق حدود اللغة، وتقع بالضرورة في اللامعنى (non-sens).

ب. القضية مثابة قائمة (أو جدول) (tableau)

رأينا كيف إستعار رسل من فتجنشتين فكرته أن القضية ليست إسماً لواقعة، مع أنها تعبر عنها.

في تقصيه علاقة القضية بالواقعة، توصل فتجنشتين إلى مفهوم يرى في القضية جدولاً للواقعة(tableau du fait) ولا يجب أن نفهم بكلمة جدول(أو قائمة) صورة بصرية بل بالأحرى "قائمة منطقية"، نموذجاً (un modèle): القضية قائمة لأن بنيتها تعكس تلك الخاصة بالواقعة مثل القضية. للواقعة مكونات يتشاكل ترتيبها مع مكونات القضية. هذا التشاكل في البنية (Isomorphisme de structure) يسمح بِعَدَ علاقة القضية بالواقعة وفقاً لنموذج علاقة الإسقاط (d´une relation de projection).

ب. فِكر الحدود

أ- حدود اللغة

تلاحظ الأطروحة الرئيسية في "الرسالة" أنه إذا كانت علاقة الإسقاط، هي التي يمكن للغة عبرها وصف العالم وهو ما تفعله،

ففي المقابل، واقعة الإسقاط لا يمكن وصفها في أية لغة. الإســقاط (la projection) هو ما يؤسِّسَ اللغة، ولكن هذه الأخيرة لا تملك أمر الحديث عنه، ولا يمكنها إلا إظهاره، وهي تعمل وتشتغل تحت عنوان ظرف الإمكان (condition de possibilité) ولأن ثمــة تشاكلاً في البُنية بين القضية والواقعة فبوسع اللغة وصف العــالم، ولكن التشاكل يمكن إظهاره ولا يمكن التعبير عنه. وعلــى قاعــدة هذه الفكرة الرئيسة، مضافاً إليها تعريف الشكل المنطقــي للقــضايا وقواعــد تركيبهــا يرســم فتجنــشتين نوعــاً مــن خرائطيــة (cortographie) لما يمكن وصفه وتفكره وهو ما يُسويّ أو يُعِدل الحدود بين المعنى (le sens) واللامعنى.

ب. حدود الفلسفة

والحال، فحتى الميتافيزيقــا الخاضــعة للإصــلاح واصــل فتجنشتين عدّها إلى جانب اللامعنى، لأنها تظهــر كمحاولــة مــن الخارج لرسم حدود اللغة والفكر، في حين لا يمكن رسمها إلا من الداخل، فهل التحليل وتوضيح اللغة فــي نظــر فتجنــشتين همــا المهمتان ليس الشرعيتين فحسب ولكن الممكنتين للفلسفة. إذ أن كل سعي آخر نظير الميتافيزيقا وأيــضاً الأتيقــا(علــم الأخــلاق) أو الأستطيقا(علم الجمال) ستقودها(اي الفلسفة) في الواقــع لمــا وراء دائرة المعنى. "الفلسفة ليست مذهباً ولكنها نشاط"، كتب فتجنشتين، وخلُص إلى أن "حصيلة الفلسفة ليست عدداً من "القضايا الفلسفية"، ولكن واقعة أن ثمة قضايا تَتَوضّح" (الرسالة، 4- 112).

5. لحظة كواين

يحتل كـــواين (Willard Quine 1980) داخـــل بانوراما فلسفة اللغة المعاصرة موقعاً أثيراً وذلك لأسباب عدة. أولاً، بسبب عمره الفلسفي المديد الذي أهله ليكون محاوراً مسموعاً من تيارات فلسفة اللغة الرئيسية. وتالياً بسبب جذريته وثبات مواقفـــه، تـــشهد على جذريته إرادة الذهاب بـــالطموح الإصـــلاحي عنـــد الآبـــاء المؤسسين إلى خلاصاته القصوى، ويشهد علـــى الثبـــات تـــرابط مشروع لم تهز التعديلات المتتالية أياً من أسسه النهائية.

1- ذروة الطموح الإصلاحي

أرادت الفلسفة التحليلية لنفسها أن تكون وقبـــل كـــل شـــيء محاولة لتبديد الغموض (démystification) نضال، كمـــا يقـــول فتجنشتين، في مواجهة إفتتان (انظر انسحار) ملكة الفهـــم عنـــدنا بوسائل لغتنا. مع كواين، أصبحت المحاولة هي "نـــزع الاســـطرة" (démythification) وأول أسطورة سيتعرض لها لن تكـــون إلا الدلالة (signification).

أ. أسطورة الدلالة

أ. المشكلة

بحسب كواين، الدلالة مقولة غامضة تحملنا على اعتبارهـــا وحدة (entité) مقترنة بكلمة أو تعبير من لغتنا، وسيكون "ما وُقَرَ

في ذهن المتكلمين عندما يتكلمون- وما رعى هذه الفكرة وأبقاهـــا، الإقتناع، الذي سبق ودافع عنه فريجه، بالطـــابع العـــام (public) والموضوعي (objecif) وهـــو طـــابع عـــادة مـــا نـــدافع عنـــه باستحضارنا لواقعتي الترجمة (la traduction) والترادف (la synonymie) ". "الدلالة" هو "ما يبقى عندما ننتقل من لغة إلـــى أخرى (الترجمة). أو "المشترك" بين عبارتين متـــرادفتين. بيـــد أن الحجة لا تكون مقنعة، كما يقول كواين، إلا إذا توصلنا إلى شـــرح أن "ما يبقى" يكون متماثلاً (Ce qui demeure identique) في الحالتين. أي إذا توصّلنا إلى إشتراط معايير تماثل للدلالات، وهـــو ما يتخطى إمكاناتنا.

ب. "الترجمة الجذرية"

يتعرض كواين للمشكلة من خلال تطرقه الى تجربـــة فكـــر. يتخيل عالم إناسة(أنتروبولوجي) وضع لنفسه هدف إنـــشاء معجـــم ترجمة للغة الشعب المحلي الذي يدرسه، في حين أنه بداية يجهـــل كل شيء. عليه إذاً أن يضع قواعد اللغة وثَبتَ بالكلمات، مـــن دون أن يكون في حوزته إلا مراقبة السلوك (الحركي واللفظي) للسكان المحليّـــين، مُرتبطـــاً بمنبهـــات حواســـيِّة (Stimulation sensoreilles) متواترة أو خاصة ببعض المواقف. هذا"الإقتـــصاد في الفكر" الفائق هو ما يسم مشروع الترجمة هـــذا. علـــى قاعـــدة المراقبة، يقيم عالم الإناسة علاقات متبادلـــة بـــين نُطـــق العبـــارة والسلوك المرافق. أو مواقف تستدعي بعض أنماط المنبهات. مثـــل تعبير "gavagai" الذي يلفظ حين يظهر الأرنـــب، أو أن بعـــض

العلامات تشي بوجود أرنب: وبعد عدة حوادث متواقتـــه، يقتـــرح عالم الإناسة تعبير "ها هو الأرنب" كترجمة لـــ "gavagai" بيد أن هذه الترجمة تصطدم بحدين كبيرين ولا يمكـــن تبـــسيطهما: أولاً، النسبية بإزاء الفرضيات التحليلية، التـــي ركبهـــا عـــالم الإناســـة بالضرورة على قاعدة المعلومة الفعلية الضعيفة التي يحوزها قبـــل أن يتمكن من وضع "gavagai" مقابل "ها هو الأرنب".

إلى جانب أنه من المستحيل عملياً فصل "دلالة" هذه المعلومة الجانبية، يبدو أيضاً أنه يمكن لفرضيات تحليلية أخرى- مع بقائهـــا متوافقة مع السلوكات المعنية- أن تؤدي لترجمة أخرى، على سبيل المثل هذه"طريدة"، من دون إمكانية ترجيح أحدهما بالطرائق التـــي نملكها وحدها. لا محدودية الترجمة الناجمة عن ذلك(وهي النقطـــة الثانية) مسألة لا يمكن تبسيطها، فلا شيء يـــسمح لعـــالم الإناســـة الوثوق ان"gavagai" تدل "ها هو الأرنب" أو ترجح"هذه طريدة" أو أيضاً هذا ما يقوم مقام الأرنب" (أي من صنف الأرنبيـــات). هـــذه الحلول المختلفة متوافقة تماماً مع عناصر السلوك والمواقف التـــي استندت إليها الترجمة. والحال، يبدو أن أية محاولة لإقامة مـــوازاة دلالية (sémantique) بين تعبيرين، سواء من خـــلال المرادفـــة (Synonymie أي intralinguistique = داخل كـــل لغـــة فـــي ذاتها) أو من خلال الترجمة (traduction أي intrlinguistique = بين بعض اللغات وبعض) تصطدم بهذا الحد المزدوج، جاعلـــة من مفهوم الدلالة الذي يحويها (la sous-tend) قاصراً لمـــصلحة أي مفهوم آخر؟

ج- "فيزياء" للمعنى؟

دعم كواين مفهوماً علمياً(مقابل أسطوري) للدلالـــة وأوجـــب استناده إلى ما يمكن مراقبته مثل السلوكات والمنبهات الحسية، ولم يبق من بديل آخر إلا شرح الدلالة بعبارات "المنبـــه" (stimuli) و «رد الفعل» (réaction)، في ذهنيـــة ســـلوكية (béhavioriste) محضة. فبدلاً من الكلام عن مُعادل بين العبارات، نتحـــدث عـــن "تماثل سلوكي"، والذي حين يظهر يجيز عد العبارات التي يـــسببها بأن لها نفس "الدلالة- المنبه". فعبارتان هما"منبه- مترادف" عنـــدما يحثان المتكلم على السلوكات نفسها، وعبارة تترجم بأخرى عنـــدما تحث المتكلم في اللغة المقصودة (Langue- but) على ســـلوكات مماثلة لتلك التي تحث عليها العبارة الأصلية عند المتكلمـــين فـــي اللغة- المصدر (Langue- source).

ب. إستبعاد "التفسير المفهومي" (intensions)

سيطاول الهجوم الكوايني ضد الدلالة حقلي المنطق وفلـــسفة المنطق، في صيغة استبعاد لـــ"التفسير المفهومي"، وهـــي وجـــوه أخرى لأساطيرنا المعهودة.

أ- المفهوم والما صدق

ورث المنطق المعدل من أعمـــال فريجـــه ورســـل بعـــض الإقتناعات القوية، ومنها خصوصاً أن حفظ اللغة من الإبهام بشكل أفضل يكون بالاكتفاء ببعض المبادئ التي نطلق عليهـــا أساســـية: "قابليـــــة التحقيـــــق" (Vérifonctionnalité)، الإســـــتبدالية

(substituvité)، الإستغراقية (extensionnalité التفسير المـــا صدقي)- وفقاً للمبدأ الأول، أن قيمة الصدق في القضية المؤلفة هي دالة (une fonction) لقيمة الصدق في القـــضايا الأوليـــة التـــي تشكلها. – وفقا للمبدأ الثاني، بمقدوري في قضية مركبة إســـتبدال قضية أولية (البسيطة) بأخرى لها قيمة الصدق نفـــسه، مـــن دون تحريف قيمة صدق القضية الأصلية.

وفقاً للثالث، ان محمولان يشتركان في الماصـــدقات نفـــسها (coextensifs) (الصدق في نفس الأشياء)، على ســـبيل المثـــل: "الحائزون على اللقَب"، و"آخر المنتصرين فـــي المـــسابقة" يمكـــن استبدال أحدهما بالآخر في تعبير من دون تحريف قيمة الصدق.

إن لغة تحترم هـــذه المبـــادئ، نقـــول عنهـــا "اســـتغراقية" (شاملة)("ما صدقية") (extensionnel).

ب. فشل "الإستغراقية" (الماصدقية)

والحال، توجد ملفوظات وخصوصاً في اللغـــة المـــستخدمة تستعصي على هذه المبادئ. لنأخذ "جان يعتقد أن شيشرون وشـــى كاتيلينا"، تحويلها إلى "جان يعتقد أن تيليوس وشى كاتيلينا" تحـــرف قيمة الصدق فيها، اذ يكفي أن يجهـــل جـــان أن شيـــشرون هـــو تيليوس". ومع ذلك، فإن القـــضايا "شيـــشرون وشـــى كاتيلينـــا"، و"تيليوس وشى كاتيلينا"، والتي تتضمن عبارات مشتركة في الدلالة (codésignatifs)، صادقتان.

المبدأ الثاني هنا قد انتهك. وأكثر من ذلك، أن قضية مثـــل "جان يعتقد أن ب" يمكن أن تكون صادقة، حتى ولو كانت القـــضية

ب كاذبة: اذ بوسع جان الإعتقاد انها تمطر، في حين أنها لا تمطر. هذه المرة يبدو المبدأ الأول منتهكاً.

ج- معالجة كواين

- مثل هذه التعابير غير السوية نسبة إلى المبادئ الموضوعة، تنتسب اذاً إلى "إصطلاح مفهومي" (Idiome intensionnel)، يرفضه كواين بشدة بسبب الإبهام الإسنادي (opacité référentielle) الذي يدخله إلى الخطاب.

- والبحث عن مصدر الابهام هو في إتفاقية وعرضية بعض العبارات في القضية، مثل "العوامل الجهوية" (opérateurs modaux) (ممكن/ضروري)، أو أيضاً أفعال "مواقف القضايا" (attitudes propositionnelles)(إعتقد، عرف، رغب، شك.. الخ)، والتي تَخلقَ "سياقات مبهمة، خاصيتها تعديل الإشتغال الإسنادي العادي للتعبيرات ذات الدلالة الوضعية(أو التقريرية) (expressions dénotantes) الموجودة. في حين أنها عادة تسمي(تؤشر) إلى موضوع، وفي سياق مبهم تكف ببساطة عن فعل ذلك. ولكن إذا جعل الإسناد(الإحالة) من نفسه متقلب الأطوار، فإن ضمان الصدق الذي يصنع قوة اللغة المنطقية التي جرى إصلاحها يتبخر. في مواجهة هكذا إثبات حال، سيكون مسار كواين جذرياً (بطبيعة الحال): استخدام كل شيء لاستبعاد السياقات المبُهمة، ومن هنا تغدو الاستجابة لمتطلبات منطق الماصدق (الإستغراقي) (la logique extensionnelle) المصاغ في مدونة

مقننة(رمزية = أو مصطلح عليها) (notation canonique) حجر الزاوية لكل خطاب ذو إدعاءات علمية.

2- منطق، أبستيمولوجيا، أنطولوجيا

يمكن أن نأخذ على كواين صرامته الشديدة في شأن معيار العلمية الذي صاغه، فهو من جهة يحرمنا من إمكانات تعبيرية تحليلية من المنطق الجهوي (logiques modales) والأبستيمي، والوجوبي (déontique)[1] والتي يرى فيها "إنحرافات". ويقودنا من جهة أخرى إلى اعتبار أن ميادين علم الأحياء وعلم النفس وعلم الاجتماع لا تملك موضوعات خاصة بها، ولا تقدر على إدراك، في لغة مجازية تمليها مصالحها الخاصة، سوى واقع فيزيائي (physique) في نهاية الأمر. ولكن كواين يعي تماماً هذه التقييدات ويتحمل مسؤوليتها. إذ أن المنطق في رأيه ليس معياراً إصلاحياً رمزياً فحسب (norme notationnelle)، إنه أيضاً معياراً للفكر، الذي في سعيه للمعرفة العلمية، عليه أن يضمن صلاح تسلسل مفاهيمه بقدر ضمان خياراته الأنطولوجية.

أ.لا موجود (كائن) من دون هوية

(pas d'entité sans identité)

- الشرح بين الإختزال والإستبعاد: لا يجهل كواين بالطبع مختلف المحاولات التي هدفت إلى إعادة إشتغال الإسناد (أو

---

(1) اللفظة اليونانية deon، ontos أي ما يجب فعله. والمنطق الوجوبي هو الدراسة المنظمة للخصائص الصورية(الشكلية)التي يجري التحقق منها بواسطة المدونات الحقوقية مثل تلك العائدة للقانون والموجبات. (المترجم).

المرجع) في السياقات المبهمة وقد حاول فريجـــه نفـــسه إيـــضاح حالات السياقات التي تحوي إقتباساً، مقترحاً إنه في سياق الإقتباس يمكن عد التعبير مفتقداً لإســـناده العـــادي ويحيـــل إلـــى "معنـــاه" (son "sens") فحسب. ولكن هنا، في نظر كواين يتم في التحليل، إدخال شبه موجودات(pseudos-entités) غير خاضعة للـــضبط: فأي معايير هوية نحوزها في الواقع من أجل "المعنى"؟ من الأفضل عندها العدول عن هكذا ترتيبات وإستبعاد الملفوظات المولدة للإبهام الإسنادي، الشيء الممكن في نظر كواين من خلال الشرح المسهب (paraphrase) في لغة(أصبحت إصـــطلاحية رمزيـــة) المنطـــق الإســـتغراقي (الماصـــدقي = La logique extensionnelle) الموحد.

ب. "الترتيب الطبقي" ورهاناته

أطلق على استراتيجية كواين هذه لفظ «الترتيـــب الطبقـــي» (embrigadement)[*] وهي وسيلة "كبح" اللغة العادية والمنطـــق

---

[*] embrigadement، تصنيف التعبيرات في طبقات بهدف الـــتخلص مـــن المتناقضات وأيضاً من نظرية الأنماط، إلا أن هذه النظرية وكما ينقُل محمـــد مهران رشوان "بدأت من نسق رسل، على وجه نستطيع معه القول بأنه علـــى الرغم من محاولة كواين وضع نسق لا تظهر فيه مباشرة نظرية الأنمـــاط، إلا أن نظريته عن "الترتيب الطبقي" قد جاءت في تعبيراتها متطابقة مع تعبيـــرات نظرية الأنماط عند رسل".
أنظر محمد مهران رشوان، "المنطق في القرن العشرين"، ضمن كتاب حصاد القرن، مؤسسة عبد الحميد شومان والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2007، بإشراف فهمي جدعان، ص576. (المترجم).

"المنحرف" (déviantes) الذي يتخيله المُنظِّرون كي يدركوه. فـــي حين أن مكان بروزه هـــو التحليـــل المنطقـــي للغـــة، ورهاناتـــه واستدلالاته تتخطى هذا الإطار البسيط، فهو يُشرك معـــه المنطـــق والأبستيمولوجيا والأنطولوجيا.

أ- البعد المنطقي

من الواضح، أن قرار أخذ اشتغال اللغة في الحـــسبان مـــن خلال فرض النقل عليها إلى لغة اصطلاحية رمزية، يهدف بـــشكل أساسي إلى توضيح السلوك الإسنادي للغة. وأحدى مزايـــا كـــواين إظهاره أن استخدام التسوير(Quantificateur)[1] فـــي الـــسياقات المبهمة يخلق صعوبة وأن عليه ان يخضع لضبط صـــارم ونحـــن نعرف الأهمية التي يسبغها كـــواين عليـــه فـــي وصـــفه حـــاملا (porteurs)، بوساطة المتغيرات التي يربطها، "حمولة أنطولوجية" للخطاب.

ب- البُعد الأبستيمولوجي

من وجهة النظر الأبستيمولوجية يملك "الإصطلاح الرمـــزي" (la notation canonique) أثرين رئيسيين.

- تبسيط النظرية، التي تنتج من استبعاد كل العبـــارات التـــي يُظهر الشرح المسهب المُناسب طابعها النافل. لنستمع إلى كـــواين:

---

(1) Quantificateur, Quantification: مسرد دقيق للقضايا الموضوعة في صيغتها بحيث تكفل الأداة بين الموضوع والمحمول تحويلها طرداً من كميات غير متناظرة إلى كميات متناظرة. (المترجم).

"إن هَمَ تبسيط النظرية هو أحد الدوافع الأساسية للجوء المُعمم إلـــى تقنية(artifice) الإصطلاح الرمـــزي(notation) فـــي المنطـــق المعاصر. فمن الجنون إثقال نظرة منطقية بزخـــارف(محـــسنات) لغوية يمكن تشذيبها(الكلمة والـــشيءُ... Le Mot et la chose, trad. Fr. Paul Gochet, Paris, Flammarion. 1977, p. 229) "

- توضيح ترسيمتنا التصورية: لأن إلزامية المرور بغربـــال "الإصطلاح الرمزي" المشهود له وحده بالشفافية من وجهـــة نظـــر الإسناد (أو المرجع) (La référence) والـــصدق (La vérité)، حدت من عدد عمليـــات الإفتراضـــات النظريـــة(المـــأخوذات)[1] (assomptions Théoriques) التي نرتكبها بسبب لغتنـــا التـــي نعبر بها: "فكل اختزال نقوم به في البنـــاءات المتنوعـــة المكوّنـــة والضرورية لإنشاء ملفوظات العلوم هو تبسيط في بُنية الترســـيمة التصورية الإجمالية لهذه الأخيرة. فكل استبعاد للبناء نـــنجح فيـــه، بتفسيرنا المسهب له في عناصر أكثر وضوحاً، يُساهم في توضـــيح الترسيمة التصورية للعلم" (المصدر نفسه، ص. 232).

على هذا النحو، فإن استبعاد عامل الموقف بإزاء القـــضايا، عدا عن كونه يعفينا من الفرضية المكلفة لـــ "الحـــالات الذهنيـــة" (états mentaux)، فإنه يكافح لمصلحة الفكـــرة التـــي تقـــول إن ترسيمة تصورية وحيدة تسمح بأن نـــدرك قـــدراً مـــن الظـــواهر

---

[1] Assomptions من الكلمة اللاتينية assumptio، تحمل مسؤولية، أخـــذ على عاتقه، وهي عملية تقوم على تأكيد شيء ما في سبيل إمكان البرهنة على قضية ما. (المترجم).

الفيزيائية والظواهر النفسية. يوجد وسيلة واحدة للعمل بالعلم رغـــم تنوع موضوعات هذا الأخير: إذ أن ثنائية "علوم الطبيعة" و"علـــوم العقل" ليست غير نزاع كلمات.

ج- البُعد الأنطولوجي

وفي ما يتعدى المنطق والنظرية العلمية التي يعمل لخدمتها، فإن الأنطولوجيا هي المقصودة في المقام الأخير، فالمنطق الـــسليم وحده يمكن أن يُرشدنا في التزاماتنا الأنطولوجية ويقينا من ذيـــوع الموجودات(entités) غير المتحكم فيها، التي تجعلنا اللغة العاديـــة نذعن لها كثيراً والتي تحويها في داخلهـــا بعـــض الخطابـــات ذات الإدعاء العلمي لأنها تتغاضى عن الإستعانة بالإصطلاح الرمـــزي. "إن البحث عن الإصطلاح الرمزي الكوني الذي يملك البنية الأبسط والأوضح الممكنين لا يجب تمييزه عن البحـــث عـــن المقـــولات النهائية أو عن جهد إنتاج القسمات الأكثر عمومية للواقع" (المصدر نفسه، ص. 232).

ج- خلاصة

دفع الطموح الإصلاحي كواين نحو موقـــف الحـــد الأدنـــى (un minimalisme) الأبستيمولوجي والأنطولوجي، مهما كـــان القطاع الذي يُمارس فيه تحليله. من هنا تعلقه بالسلوكية في شـــأن نظرية اللغة، والإستغراقية(الماصدقية L'extensionnalisme) في خصوص النظرية المنطقية، والفيزيائية (physicalisme) في مـــا يتعلق بالعلم.

وللوهلة الأولى تبدو فلسفته بأكملها وكأنها محاولة ممنهجة لشرح الأعلى بالأدنى، بإمرة سلطة اللغة، ويقترب مجال إدراكها من نطاق المقولات (catégoriale) وهي أبعد من أن تهتم بالطريقة فحسب.

قلة من المنظرين المعاصرين أو اللاحقين، باستثناء د. دافيدسون (D. Davidson)، وهـ بتنام (H. Putnam)، ون. غودمان (N.Goodman)، توصلوا إلى التكيف مع هكذا مناخ بات نادراً على هذا الشكل.

6. مقاومة وإنشقاق

1- من زهو الإنتصار إلى التبصر

مع عمل كواين، وصل الطموح الإصلاحي المحرك لمؤسسي فلسفة اللغة إلى ذروته. فقد حملت مقولة"الترتيب الطبقي" (embrigadement) التي قال بها هذا الأخير مشروع إصلاح اللغة المستلهم من البحوث المنطقية- الرياضية إلى تعبيره الأكثر جذرية واكتمالاً. ولكن، وفي الوقت نفسه ولأنه دفع الإدعاء الإصلاحي إلى مداه، فقد كشف كواين عن الأخطار والحدود، مُحضِراً على هذا النحو تجاوزه داخل فلسفة اللغة نفسها.

أ. في بعض شطط الجذرية

أ- جذرية أم إختزالية؟

لقد شددنا على جذرية مواقف كواين. واذ نجح في تبرير نفسه على مستوى المنهج، فإن المستوى الأبستيمولوجي يُظهر بعض العوائق ومحتمل أيضاً على المستوى الأنطولوجي. فإذا نظرنا من قرب، فإنه يأخذ عند كواين مظهر إختزالية (réductionnisme) أخذها بالتأكيد على عاتقه، ولكنها تطرح مشكلة. فقد رأينا. بالفعل، أن "الأركان" الثلاثة للنظام عنده (السلوكية والفيزيائية والإستغراقية) تشترك في الإهتمام المستمر بالإقتصاد الأنطولوجي. على هذا النحو، تجعل السلوكية والفيزيائية نافلاً المفاهيم الذهنية للدلالة وللعقل، في حين تخلصنا الإستغراقية

من هذه "الموجـــودات المفهوميـــة" (entités intensionnelles) المثيرة للشبهات والتي هي عند كواين "القضايا" أو"المعاني". فحـــين يؤدي شرحان الخدمات نفسها، يقول، من الأنسب تفـــضيل الأكثـــر اقتصاداً في الفرضيات الأنطولوجية. وعليه أيضاً أن يؤدي تمامـــاً الخدمات نفسها، والحال ليس كذلك دائماً.

هكذا، على سبيل المثل، يضع منع إســـتعمال الأســـوار فـــي السياق الموجه(en contexte modal) بعيداً من التحليـــل بعـــض الملفوظات المستخدمة نظير "بيار يعرف أن بـــول قـــادم"، حيـــث يتطلب الوصف الرمزي التوليف بين عامل موجـــه (opérateur Modal) إبستيمي(يعرف) وســـور(Quantificateur) وجـــودي. والحال، لقاء افتراضات نظرية (assomptions) أكثر ليبرالية من ذلك الخاص بكواين، فإن "علم دلالة العوالم الممكنة" (La sémantique des mondes possibles) العائد لكل من هينتيكا (Hintikka) وكريبكه(Kripke) يضع فـــي اعتبـــاره الإشـــــــتغال الإســـــــنادي لهكـــــــذا تعبيـــــــرات (Fonctionnement référentiel).

ب- صعوبات أخرى

أما في شأن الملفوظات "القصدية" التي تتدخل فيها "الحـــالات الذهنية"(إعتقاد، قصد، رغبة...)، فإن كواين يميـــل إلـــى اختـــزال فيزيائي تجعله مؤيداً القول إنه على المستوى الأنطولوجي لا يوجد سوى حالات عصبية (états neuronaux) تتقبل وصفان: واحـــد في اللغة الفيزيائية لعلوم الطبيعة، والآخر، في اللغة الذهنيـــة لعلـــم النفس العادي ونوع من فلسفة الذهن. وإذا مالت الكفـــة لمـــصلحة

الثاني لحاجات الإتصال الجاري، فإن الأول وحـــده يحـــتفظ بحـــق إدعاء المرتبة العلمية.

وأخيراً، تجعل معالجة الدلالة بتعبيـــرات الـــسلوك، عـــسيراً إدراك المعنى المعياري للملفوظات. التي تؤسس سلوكاتنا الأتيقيـــة، لأنها لا تتوصل إلى إعادة التمييز الأساسي، من وجهة نظر الأتيقا، بين الفعل المنجز بالواجب والفعل المتوافق ببساطة مع الواجب. إلا بإختزال(ما فعله كواين) السلوك الأخلاقي في شكل مرهـــف مـــن التصرف التقني- الإستراتيجي، ما يشبه كثيـــراً مـــا ســـماه ريلـــه (Ryle) خطأ فـــي المقـــولات" (category mistake = erreur catégoriale).

ج- جردة

في الإجمال، إن نذر الفقر(أي التقليل من الموجودات) الـــذي قال به الفيلسوف المهموم بالإحتراس من التيه الميتـــافيزيقي ومـــن تضخم الموجودات(entités) النافلة، يمكن أن يكـــون لـــه أثـــران مشؤومان وغير متوقعين، الأول، الحرمان الطـــوعي مـــن أدوات تحليلية قوية، اذا ما حكمنا على ذلك مـــن خـــلال التقـــدم المـــذهل والنجاح المشهود له الذي يعرفه اليوم المنطق الموسوم من كـــواين بـــ"الزائغ" (أو المنحرف). وتالياً، الإكتشاف بأن المراقبة والإقتصاد في ما خص الإلتزام الأنطولوجي يمكن أن يـــؤدي، وبعيـــداً مـــن التبسيطات المرجوة، إلى "إنحلال الموضوع" (dissolution de l'objet) وخصوصاً في مجالات فلسفة الذهن، والأتيقـــا والعلـــوم الإجتماعية.

ب. مفهوم جزئيء للغة

تركزت أولى بوادر النقد على جذريـــة المواقـــف، وأخـــرى أسمعت نقدها هذه المرة في خصوص المعالجة المفروضـــة علـــى اللغة.

أ- وظائف اللغة "المنسيِّة"

بالتأكيد، في هذه النقطة يعد كواين وريث ومتابع لتوجه كان رائده فريجه. فمن مـــشروع الكتابـــة الإيحائيـــة(أو التـــصويرية) (Idéographique) الخاص بفريجـــه إلـــى اللغـــة الإصـــطلاحية المقترحة من كواين، نجد هيمنة للتوجه نفسه: لا يمكن تجنب أفخاخ اللغة إلا بفرض نظام (discpline) مستوحى من اللغات الصورية (formelle) في غفلة عن بعض الأمور!

- أن اللغات الصورية، أولاً، لغات إصطناعية (artifcielles)، جرى تصورها لبلوغ هدف محدد: إعطاء شكل مناسب لمـــا يعبـــر عن المعرفة العلمية، غير أن اللغات الطبيعية لاتملك بوضوح هـــذا الهدف وحده.

- وأكثر من ذلك، اللغات الصورية إذا جاز القول هـــي لغـــات "نحوية" (syntaxiques) (تركيب جمـــل وعبـــارات)، إمكاناتهـــا التعبيرية مقيدة بقواعد تشكل وتحول المنظومات التي تولدها، مـــا يقربها من "الحساب"(calcul)، بيد أن اللغات الطبيعيـــة لاتتـــرك نفسها تنقاد إلى هكذا صيغة من الإشتغال.

كل هذه المحاولات، أخيراً، تتعلق باللغة مقادة إلى واحدة من وظائفها، أي الوظيفة "التمثيلية"(représentative) والتي تملك من

خلالها القدرة على قول ماهو موجود بـــصدق (dire ce qui est avec vérité) ومن دون شك، فإن هذه الشروط جـــرى وصـــفها وتشفيرها(سنها) في قواعد تشكل واشتغال اللغات الصورية، ونحن نعلم أي متطلبات على اللغة أن تستجيبها كـــي تـــضمن شـــفافيتها وإسناديتها(أومرجعيتها) وصدقها. ولكن ثمة وظيفتـــان قـــد نحيتـــا جانباً: الوظيفة التعبيرية (expressive) ووظيفة النداء (appel).

ب- من النحو إلى الإستخدام

والحال، إذا ظهرت غير جوهرية من وجهة نظر المعرفـــة، فإنها أساسية من وجهة نظر التواصل (communication) ويمكن حتى إهمالها طالما لا نهتم إلا بتقديم وصف ملائم للعـــالم، ولكـــن نعود إليها إذا ادعينا فهم النشاط اللغوي لنفسه وبوصفه كذلك. وهو ما سيصبح ابتداء من خمسينات القرن العشرين المنصرم الموضوع الأثير عند فلاسفة اللغة، كردة فعل، جزئيا، ضد "الإختـــزال" فـــي العصر السابق.

ج- إرشادات

أقر نقد اللغة الذي أُنشىء من فريجه إلى كواين بحدوده فـــي نفس الوقـــت الـــذي أقـــر فيـــه مـــسلماته: فالتـــشفير (التـــسنين) (codification)الصارم والخصب للإشتغال الإسنادي للغة كـــان من متلازماته الضرورية تقييد اللغة فـــي واحـــدة مـــن وظائفهـــا، المأخوذة أقله على أنها أصلية (originaire)، مالا يتنافر مع مفهوم كواين عن التعلم المؤسس على عرض الرسوم(التعليم الإشـــاري = ostention)، إذا لم نقل أولية(principielle).

حددنا من دون شك بهكذا إصلاح، ما هي اللغـــة الـــضامنة لعملياتها الخاصة، والقادرة على إداء وصف علمي للعالم لكن، يبقى علينا أيضاً فهم ماهي اللغة، في شمولية أبعادهاالمتواشجة أخيراً.

د- ماذا يعني التكلم؟

يفترض هذا الفهم إحترام اللغة في تعددية إســـتخداماتها. إذ- يبدو جلياً أن الإمكانات التعبيرية للغة تـــذهب أبعـــد ممـــا يـــسمح باستشفافه الجدول الوصفي وحده. التكلم(parler) لايعنـــي تـــسمية الأشياء فحسب، إنه أيضا طرح الأسئلة، وإعطاء الأوامر، وتقـــديم الوعود، وصوغ الأمنيات، ووضع البيانـــات...الـــخ. قـــدر مـــن الإستخدامات حيث يقف التنوع واللاتجانس متحدياً، وإذا لـــم يكـــن التحليل فأقله التشفير، وحيث يسمح الفهـــم وحـــده بالإجابـــة عـــن خصوصية التواصل اللغوي. إنها مهمة جديدة ترتسم إذاً أمام فلسفة اللغة، وهي وصف وتحليل التواصل اللغوي بين البشر، في مجمل أبعاده. وفي نهاية طرف هذا البرنـــامج الجديـــد نجـــد شخـــصية فتجنشتين المثيرة للجدل.

2- الفلسفة الثانية لفتجنشتين: من الرسالة إلى التحقيقات

نحن نعلم إنه بعد نشر "الرسالة المنطقية الفلـــسفية" (1921)، أهمل فتجنشتين ممارسة الفلسفة ليكرس نفسه لأنشطة أخرى. وحين عاد بعد عدة سنوات من الصمت إلى الفلسفة فذلك كي يُباشر نقـــداً منظماً، لا لعمله السابق بل لذلك الشطط في داخل الحركـــة التـــي تصورها وكتب عنها. هذا القطع شجع المعلقون على الحديث عـــن فتجنشتين "الأول" و"الثاني"، ما يُعزز فكـــرة تغيـــر الإتجـــاه التـــام

للكاتب. ويمكن أن يكون في ذلك مبالغة، لأنه من "الرسالة" إلـــى " التحقيقات الفلسفية" (1936-1939) ثمة قطع وقدر من الإستمرارية أيضاً[1].

أ- قطع

في المقام الأول بالنبرة والأسلوب قطعت "التحقيقـــات" مـــع "الرسالة". ومكان الأسلوب الحكمي(Aphorismes) المقتضب في المقالة تحل الملاحظات التي تعبر عن حركية الفكر وهو في ترقيه: في مواربـاته وتكراراته وتردده ومظهره المتجزأ. وكـــذلك، مكـــان التصنيف الصارم لأطروحات الرسالة يحل تسلسل حـــر للأفكـــار، فنفس الموضوعة يمكن أن تستعاد بإيضاح جديد في أمكنة مختلفـــة

---

[1] يقول فتجنشتين في "الرسالة:" إن موضوع الفلسفة هو التوضيح المنطقـــي للأفكار. فالفلسفة ليست نظرية من النظريات، بل هي فاعلية. ولـــذا، يتكـــون العمل الفلسفي أساساً من توضيحات. ولا تكون نتيجة الفلسفة عدداً من القضايا الفلسفية، وإنما هي توضيحات للقضايا. فالفلسفة يجب أن تعمل على توضـــيح وتحديد الأفكار بكل دقة. وإلا ظلت الأفكار معتمة ومبهمة- اذا جاز لنـــا هـــذا الوصف.

فغاية التحليل في "الرسالة" هو تحليل اللغة، اذ أن سوء فهمها سبب كثير مـــن المشكلات الفلسفية. لذا، يبدأ فتجنشتين رسالته بتحليل العالم "منطقياً"، أما فـــي التحقيقات فإنه يلجأ إلى التحليل الفلسفي، فلا يدرس العبارات والكلمـــات مـــن حيث صورتها بل بوصفها كلمات أو عبارات لها استخدامات فعلية في الحياة، أي إنه يدرسها من حيث مادتها.

أنظر، رشيد الحاج صالح، المنطق واللغة والمعنى فـــي فلـــسفة فتجنـــشتين، (دمشق، دار كيوان،2005)، ص 63 و67 و138.(المترجم).

من النص، وحيث لا يتعنى فتجنشتين بتنظيمها بنفسه فـــي "كتـــاب" فعلي.

- إذا راعينا الآن الأطروحات المدافع عنهـــا، يتبـــين لنـــا أن المنطق نفسه هو موضع الإعتراض في إدعائه أنه مُدرِكٌ لإشتغال اللغة. فهو كما تطور واستُخدِم منذ فريجه يـــشكل إطـــاراً ضـــيقاً وصارماً في آن، كي يَصب فيه كل غنى اللغة.

- والحال، نشأت هذه الهنَة من التفاوت في مفهوم اللغة نفـــسه، المتداول آنذاك، والذي باشر فتجنشتين نقضه. ويغطي هذا المفهوم ثلاثة أخطاء:

1- أن اللغة في طبيعتها وصفية؛ 2- أنهـــا تـــشْتغل مثـــل مدونـــة مصطلحات،- وأن الدلالة مثابة "بطاقة" (واسم Etiquette) تضعها الكلمة على الشيء. ثلاثة أخطاء أثارها فتجنشتين في كتبه، قبل أن يستخلص كل النتائج في مفهومه الجديد للغة الناجم عنها.

ب- إستمرارية

يبقى أن بعـــض عوامـــل الإســـتمرارية بـــين "الرســـالة" و "التحقيقات" يمكن التقاطها، وأظهرها يتعلق بمفهوم الفلسفة. هنا؛ في الواقع، يثابر فتجنشتين على القول أن الفلسفة لا تصنع نظريـــات، وأن رسالتها وصفية أساساً، ومنذورة لتوضيح إشتغال اللغة. وهـــذا التوضيح لا يمر بعد الآن بغربال المنطق الدقيق، ولكن يمر عبـــر إحصاء دقيق وكامل قدر الإمكان لاستخدامات اللغة.

ج. جردة

تدخل فلسفة اللغة هنا في مرحلة جديدة من تاريخهـــا. فبعـــد زمن الإصلاحات الذي شهد إنتصار التحليل المنطقي الذي ســـاهم في توضيح البعد النحوي(التركيبي) والدلالي للغة، إنتقل الإهتمـــام نحو الإشتغال الفعلي للغة في استخدامها اليومي. وأضـــحى فجـــأة وشيئاً فشيئاً المحور الدلالي- البراغماتي(الذرائعي ـ التداولي) هـــو محور الإهتمام الرئيسي للمُنظريِّن. من دون شك، إن الإلتفات إلـــى الإستخدام(L'usage) يؤشر إلى نوع من إنكفاء التحليل المنطقـــي لمصلحة الوصف المحض، بيد أن هذا الإنكفـــاء ســـيكون قـــصير الأمد. ولن يتأخر المناطقة في جعل علم الدلالـــة والتداوليـــة فـــي اللغات الطبيعية موضوعها المفضل، مع نتائج عظيمة أحياناً، مثابة شهادة أن الوظائف"المنسيِّة" مثل الوظيفة التعبيرية ووظيفة النـــداء (appel)، يمكنها هي أيضاً أن تقبل تأثير التحليل المنطقي.

7. عودة اللغة العادية

أظهر النقد أو الإبتعاد فحسب عن"شطط" التقليد الإصـــلاحي حساسية نمت بين الباحثين، ناقلـــة إهتمـــامهم نحـــو موضـــوعات وطرائق تحقيق جديدة. والأمر كان أكثر من مجرد إنزيـــاح، إنـــه تحول فعلي، كان يعتمل شيئاً فشيئاً بمداه وآثاره، ويقترب من تغير فعلي للباراديغم[1](paradigme) في فلسفة اللغة، ففي الواقع، خلف

---

[1] paradigme قبل أن نضبط مفهوم الباراديغم نشير إلى أن بعض المفكرين والباحثين يستعملونه بمعنى "النموذج"، في حين تكشف الدراسات الإســـتقرائية في هذا الموضوع أن هذه المفردة لاتعبر عن المعاني الكثيرة المنضوية تحـــت هذا المفهوم. كما أن هناك عدة كلمات ومصطلحات في اللغات الغربية واللغـــة العربية، متقاربة في معناها العام ومختلفة في دلالاتها الضيقة هـــي الأخـــرى تترجم إلى كلمة نموذج مثل: نمـــط (type)، ترســـيمه (schéma)، نمـــوذج (Modèle)، مثال (exemple)، نظريـــة (Théorie)، ونـــسق (Système) والحال، تختلف عبارة باراديغم عن هذه المفردات لأنها تمتلك معنى اصطلاحياً لا تملكه أي منها.

يعود الجذر اللغوي لـ "الباراديغم" إلى اللغة اليونانية، وهو مـــشتق مـــن كلمـــة paradigma وكلمة "النموذج" كلمة معربة، وهي كما جاء في معاجم اللغـــة من كلمة "نموذة" الفارسيّة، وجمعها "نموذجات" و"نماذج"، ونموذج البناء نسخة مبسطة، ومن ثم فهو يحتوي على العناصر الأساسية للبناء ولكنه يختلف عـــن الأصل. وقد استُعيرت هذه الكلمة في اللغة العربية وتـــستخدم للإشـــارة إلـــى "النموذج" بوصفه أداة تحليلية ونسقاً كامناً يدرك الناس مـــن خلالـــه واقعهـــم ويتعاملون معه ويصوغونه. ←

←كما أن "النموذج" بنية فكرية تصورية يجردها العقل الإنساني من كم هائل من العلاقات، فيختار بعضها ثم يرتبها ترتيباً خاصاً أو ينسقها تنسيقاً خاصاً، وطريقة الترتيب والتنسيق هي التي تُعطي النموذج هويته المحددة وفرديته وتفرده. والنموذج ليس هو الحقيقة أو الواقع، ولا يوجد جاهزاً لكنه ثمرة الملَكات الفكرية (المنطقية والتخيلية) للعقل. هذا، ويتسم "النموذج" (paradigme) كأداة تحليلية بمقدرته على ربط الخاص بالعام والجزء بالكل والنتيجة بالسبب، من دون أن يفقد أي عنصر منها شخصيته وهويته واستقلاليته، ويحاول حل المشكلة بإفتراض وجود مسافة تفصل الكل عن الأجزاء والسبب عن النتيجة. بحيث لايمكن ردَّ الكل إلى الجزء ولا يمكن رد الجزء في كليته إلى الكل. اذ أن لكل ظاهرة منحناها الخاص الذي يُعطيها هويتها الخاصة. ولذا، يحاول النموذج أن يرى ظاهرة ما في علاقتها بالظواهر الأخرى وهذا ما يُكسبها دلالتها العامة من دون إهمال استقلالها النسبي وشخصيتها المستقلة. وباختصار، يمكن القول إن النموذج أداة تفسيرية تصلُح لتفسير كل من الظواهر الطبيعية والإنسانية، تصدر عن تفهم لمحدودية الإدراك البشري في رصد الواقع الطبيعي والإنساني.

أما في فلسفة العلم فقد استخدم مصطلح "البارادِيغم" للدلالة على أن تفسير الظواهر الغامضة يتم من طريق ربطها وتنسيقها إلى بعض الأشكال القياسية للعمليات أو البارادِيغمات والتي يجري اعدادنا لقبولها بوصفها بارادِيغمات مُفسِرة لنفسها.

إلا أن مفهوم البارادِيغم لم يحصلَ على مكانته الحالية في فلسفة العلم وفي العلوم الإنسانية إلا مع توماس كون (Thomas kohn)، حيث ربط هذا المفهوم بمفهوم آخر ذي أهمية كبيرة في فلسفة العلم والثورات العلمية. فقد ذهب "كون"- خلافاً لمن سبقوه- إلى عدّ تغيرات البارادِيغم تغيرات ثورية تؤدي إلى تغيير جذري في البيئة المعرفية وفي العالم الذي يمارس فيه العلماء أنشطتهم. و"البارادِيغم" عنده هو "المنجزات العلمية المتميزة المعترف بها عالمياً والتي تُجهِز في فترة معينة موديلات للمشكلات والحلول بالنسبة لجماعة من الباحثين العلميين" (كون، **بنية الثورات العلمية**).(المترجم).

شيئاً فشيئاً باراديغم "قابلية التحقيــق" (vérifonctionnel) الــذي هيمن على التيار الإصلاحي من فريجه إلــى كــواين، البــاراديغم الإتــصالي (Le paradigme communicationnel)، والــذي سيفرض نفسه خصوصاً لدى من يطلــق علــيهم "فلاســفة اللغــة العادية". وفي داخل هذا التحول كان دور فتجنشتين حاســماً مــرة أخرى.

1- أثر"التحقيقات الفلسفية"

في هذا المؤلف الثاني الأساسي، عاد فتجنشتين عن مواقفــه السابقة. كان الأمر أكثر من مجرد نقد ذاتي، إنه إعادة نظــر فــي تيار فلسفي من جانب أحد قدامى المدافعين عنه، والذي إعتنق الآن آراء أخرى.

أ.مظاهر التقلب

ثمة مظاهر عدة لتبدل فتجنشتين، ويحصي عليه ناقدوه كثيراً من النقاط.

أ- مفهوم اللغة

ما أعترض عليه، في المقام الأول، هو الحدود الشديدة التــي فرضها أنصار التيار الإصلاحي علــى اللغــة، فــي معارضــتهم "الميتافيزيقا" وإرادتهم بناء "لغة مثالية". ومن هذه المحاولــة ذاتهــا يميز فتجنشتين نفسه فهو لم يعد يعتبر أن "خلاص" الفلسفة يمكن أن يتأتى من إنشاء هكذا لغة. زد على ذلك أن اللغة قد اختزلــت فــي وظيفتها التعبيرية وحدها، وأفتُرِض أن مسألة الدلالــة قــد حُلــت

بوساطة القواعد الصورية(les règles formelles) للغة المثالية، فدلالة تعبير ما تحصل حين يلبي قواعد التأليف الجيدة. وتلك التـــي تسمح بأن ننسب إليها "موجودات" (entités) من نمط محدد حـــين نفسرها في نموذج. فالدلالة، كما قيمة الـــصدق، مـــسألة حـــساب (calcul)، ما يحفظ بالتأكيد شرط أحاديـــة المعنـــى (univocité) الذي يُعد أساسياً، ولكن من دون أن يظهر وكأنـــه مفهـــوم ضـــيِّق للدلالة.

ب- محاولة "المكوّن النهائي" (L'ultime)

لكن، هناك أكثر من ذلك، فخلف مشروع إنشاء "لغة مثاليـــة" قام فتجنشتين بالتنديد بالفكرة التي تقول إن الدلالـــة، مـــن جهـــة، والواقع، من جهة اخرى، يمكن أن يكونا موضوع تحليل "نهائي".

فمن رسل إلى كواين، نجد هـــذا الإقتنـــاع بـــأن "تفـــصيل" (La mise au jour) المكونات النهائية للقـــضية، تقطيعهـــا فـــي "الشكل المنطقي" للقضية، يؤدي وظيفة إيـــصالنا إلـــى المكونـــات النهائية وإلى بنية "الواقع". غير أن فتجنشتين، ومن فكرة التحليـــل "النهائي" نفسها كشف عن "وهم ميتافيزيقي".

فالنهائي ليس إلا ما يُطلق عليه أنه كذلك لحاجات نوع مـــن التحليل، أي نسبياً وفقاً لبعض المـــصالح والأهـــداف والرهانـــات. فالوصول إلى الحد المنطقي الأخير الذي لايمكن تبـــسيطه بعـــد(أو اختزاله)(L'irréductibilite logique) ، ضامن "النهـــائي" فـــي المقاربات ذات الصلة، ليس إلا وسيلة من بين وسائل أخرى ممكنة

لتحديد العنصر النهائي. فعدم معرفته أو اخفائه يعني الوقوع مجدداً في "الوهم الميتافيزيقي" الذي ندعي تخطيه.

ج- التسليم للغة بتنوع استخداماتها

كان من أثر مختلف أنواع النقد تعديل طريقة إدراك اللغة وطريقة طرح سؤال الدلالة. فسيعقب التحليل المنطقي الذي يقوم على "الشكل المنطقي" و"المكونات النهائية" للقضية إحصاءً (أو تعداد)(recension) لمختلف الإستخدامات الفعلية للقضية ووصفاً لشروط الإستخدام والتي ضمنها وحدها يتحدد المعنى. وبعيداً من متابعة النظر إليها بوصفها مصدراً- بل المصدر الرئيسي- للإبهام، فإن تعدد الإستخدام الذي يُحترم بشدة، يصبح الآن هو ما يقينا من مفهوم إختزالي للغة والدلالة.

ب- "الدلالة، هي الإستخدام"

إحدى الأطروحات الرئيسية في"**التحقيقات**" هي ومن دون منازع، تلك التي تؤكد أن "دلالة كلمة ما، إستخدامها في اللغة". غير أن ما يميز الكلمة أن لها في اللغة إستخدامات متعددة. فبدلاً من رسم صفات شكلية للدلالة بحدود القواعد النحوية(التركيبية)، يقودنا الإحصاء ووصف الشروط الفعلية للإستخدام إلى تحديد الدلالة.

أ- ألعاب اللغة...

فهم عبارة يعني فهم ماتدل عليه في استخداماتها الفعلية، أي فهم كيف "تنتظم"(opère) في مواردها المختلفة. لايمكننا فصل

الدلالة عن الشروط الفعلية للإستخدام: هكذا، فعبارة "ألقى التحيـــة" (Saluer) لا تأخذ المعنى نفسه إذا أستخدمت من قبل جنرال يُخطِرُ مجنداً بتحيته، ومن طرف شخص يُحَيِّي صديق قديم أو من المؤمن الذي يقول "عليك السلام يامريم" فكل مورد موجـــود فـــي موقـــف يستدعي ممارسة(pratique) مخصوصة، تعطي لكل حالة لفعـــل "إلقاء التحية" (Saluer) تلوينة فريدة يجب التمكن منها لفهم العبارة في كل مواردها.

ومن أجـــل إدراك هـــذا الإقتـــران بـــين الدلالـــة اللغويـــة (signification linguistique) ومجمل السلوكات والممارسات، لجأ فتجنشتين إلى مقولة"لعبة اللغة"(Jeu de langage)[1]. طلـــب تحية رسمية، الترحيب الأليف بصديق، إقامة الصلاة، قـــدر مـــن "ألعاب اللغة" ينتظم في داخلها فعل "إلقاء التحيـــة". ففهمـــه، يعنـــي القدرة على وضعه في غير مكـــان، مـــايفترض أن فـــي إمكـــاني المشاركة إحتمالاً في هكذا ألعاب للغة. وفي ماخص دلالة العبارة، وبعيداً من القدرة على التعريف بحـــدود شـــكلية محـــضة، فإنهـــا

---

(1) لعبة لغوية: هي عملية إستعمال الألفاظ في نظام تواصل، ويتعلم بواسطتها الأطفال لغة الأمومة. ولكن يتحدث فتجنشتين في بعض الأحيان عن لغة بدائية باعتبارها لعبة لغوية(الفقرة 7 من **التحقيقات**)، ويؤدي هذا المفهوم الإجرائـــي دوراً أساسياً في فلسفة فتجنشتين في طوره الثاني لأنه مرتبط بالفعل اللغـــوي ومنطق الإبهام والقواعد والتواضع الاجتماعي والدينامية الزمانية للمعاني.
(نقلاً عن الثبت التعريفي الذي وضعه د. عبد الرزاق بنوّر الذي ترجم كتـــاب فتجنشتين، **تحقيقات فلسفية** (بيروت، المنظمـــة العربيـــة للترجمـــة 2007)، ص493. (المترجم)

محصورة في إحصاء ووصف الألعاب المختلفة التي يمكن العبارة أن تورد فيها.

ب-... إلى "القواعد"

كيف يمكن المعنى أن يتوضح في هكذا إحصاء؟ فمختلف إستخدامات العبارة والألعاب المختلفة التي تسمح بها، تقيم نوعاً من الصلة وتنظم نفسها في "شبكة" (Réseau)، يشكل وصفها قواعد العبارة. لايتعلق الامر هنا بالتأكيد بقواعد اللغة بالمعنى المتعارف عليه، أي هذا الفرع المعرفي المعياري الذي يحدد شروط البناء والإستخدام "الصحيح" للعبارات اللغوية. يتعلق الأمر بقواعد لغوية فلسفية (grammaire philosophique)، وصفية بشكل أساسي، ذات وظيفة مزدوجة: لغوية(linguistique)، لأن الموصوف هنا، هي القواعد الفعلية لاستخدام تعبير (ما)، وأنطولوجية (ontologique)، لأنه ومن خلال الوصف تتخطط وفي آن الميزات الأساسية لـ "الأشياء" (أو الموضوعات) التي تعبر عنها الملفوظات. على هذا النحو، يقول فتجنشتين: "كل عصا تملك طولا" يدل تقريباً "تطلق على شيء ما(أو ذاك) طول العصا- ولكن لا نطلق على شيء طول المكوّر (Boule) " (**التحقيقات**،251).

ج- دلالة "قواعد اللغة" (La grammaire)

على هذا النحو نرى أن وظيفة "الرسالة المنطقية" التي آلت إلى تحصيل الحاصل (Tautologies)، أي تعيين حدود ما يمكن وصفه والتفكير فيه، آلت الآن إلى قضايا قواعد اللغة

(propositions grammaticales) تلك التي وصفتها الميتافيزيقا القديمة بأنها "أساسية". مع فارق غير بسيط: عندما تؤمن هذه الوظيفة من جانب القضايا المنطقية، يمكن لتعيين الحدود أن يؤخذ على أنه نهائي ومطلق. الآن، إذ يعود أمره إلى قضايا قواعد اللغة، يصبح نسبياً بالنسبة إلى اللغة التي صيغ بها والألعاب التي يسمح بها.

قضايا "قواعد اللغة" تُثبِت اذاً، في لغة محددة، وفي آن دلالات التعابير ومظهر العالم التي تسمح هذه اللغة ببنائه أو وصفه. إن خط القسمة بين المعنى واللامعنى يبقى وثيقاً، ولكنه يُبدل مكانه، لأنه غير مرسوم للأبد، ولكن نسبة إلى لغة(ما) وإلى ألعاب محددة يسمح بها. وبدرجة أقل تبدو فكرة التماس الضرورية للمعنى واللامعنى هي موضوع الإعتراض هنا بقدر ما هي فكرة "طغيان" المنطق ولغة العلم: فنحن لاننتقد مطالباتهم ولا مقولاتهم، ولكن إدعاءهم الصلاحية"الكونية"، علماً أن شرعيتهم محصورة في حقلهم الخاص وفي دوائر أنشطتهم المعنية.

2- نحو «براديغم» جديد في فلسفة اللغة

إن التحول الذي حصل انطلاقاً من "التحقيقات" وفي قسم كبير تحت تأثيرها، جَسَّد مُقدَّماً ومن دون شك تغييراً في براديغم فلسفة اللغة، علامته البارزة الحلول التدريجي بَدَلَ وجهة النظر النحوية(التركيبية) للبنية، لوجهة النظر الذرائعية(التداولية) للإستخدام.

أ. مفهوم جديد للغة

تعرض مفهوم اللغة السائد داخل التيار الإصـــلاحي لتغيـــر عميق. اذ لم يعد يقتصر الأمر على عدم اعتبار أن البنية الـــشكلية (الصورية) للغة تستنفد مسألة الدلالة، بل لـــم نعـــد نأخـــذ تعـــدد الإستخدام بوصفه عائقاً أمام تحديد المعنى. بل الأولى أن نرى فيه مُكملاً لا غِنى عنه لمفهوم غير إختزالي للدلالة.

وهناك أكثر من ذلك، فخلف هذا التغيير ترتسم فـــي الأفـــق عدة إنزياحات.

- أولاً، الإعتراف بالبعد الفِعلانـــي(مـــن فِعـــل actionnelle) للدلالة. فإذا كان فهم ملفوظ(ما) هو التحكم ببعض ألعاب اللغة، فإن التكلم (parler) هو وقبل كل شيء سلوك(ما) مرتبط بجملـــة مـــن الممارسات المنظمة، "شكل من الحياة" (forme de vie)[1].

- **ثانيا**، إيضاح أهمية السياقات ومواقف إســـتخدام اللغـــة فـــي تحديد المعنى. في حين أن محاولات إنشاء "لغة مثالية" اهتمت دائماً بنزع سياق الدلالة(dé-contextualiser)، بمحاولة إيجاد، ضـــمن الإقتصاد الداخلي للنظام، الشروط الكافية للدلالة. المقاربة الجديـــدة لا تدرك المعنى إلا في تعلقه بالسياق، باعتباره مُكوِناً.

---

[1] شكل حياة: إذا كانت اللغة تنتمي إلى تاريخنا الطبيعي، فأن التوافق الـــلازم كي نستطيع الحديث عن لغة وألعاب لغوية يتطلب تركيبة إجتماعية منتظمة في شكل معين يسميه فتجنشتين "شكل حياة". لذلك فأن تتـــصور لغـــة يعنـــي أن تتصور شكل الحياة (الفقرة 19 من **التحقيقات**)، وحيث تكون اللغة معقدة يكون شكل الحياة كذلك، المصدر نفسه، ص49. (المترجم).

أخيراً، هذا الإهتمام المستجد بالإستخدام سبق أن أظهر رسوخ بُنية الفعل التواصلي: فالكلام هو بالتأكيد نشاط منظم، ولكنـــه ننـــشاط داخلي- فِعلي (تفاعلي) (interactionnelle) وكل من هذه السمات التي إلتقطناها تشهد على هذا البعد، وتُفِيد أن المفهوم الجديد للغـــة الذي أقيم شيئاً فشيئاً، يتأسس على حساسية جديدة في وجه ضوابط التواصل اللغوي.

ب. مفهوم جديد للمنطق

كما فلسفة اللغة، وجد مفهوم المنطق نفـــسه متـــأثراً. فحتـــى اللحظة كان المنطق أداة التحليل الأثيرة، متيحاً إمـــا الإختـــزال أو تخطي أثار الإبهام التي تخلقها تغيرية (variabilité) - وخصوصاً السياقات النصيِّةَ- (contextuelle) الدلالات. لقاء، كما رأينا، عدد من التقييدات المفروضة على اللغة. والحال، في المقاربة الجديـــدة، تجد الأبعاد المستبعدة حتى الآن حقها فـــي الـــذِكر. إضـــافة إلـــى الإصرار على التغيرية والتنوع في الإســـتخدام، نكتـــشف الطـــابع "المفتوح" غير المحدد لألعاب اللغة، الذي يظهر وكأنه يضع "خارج الحلبة" (أو التداول) (hors circuit) التحليل المنطقي وإحباط حتى فكرة تصنيفها أو ترتيبها في أنماط (typologie) وعلى الأكثـــر، بمقدورنا مُعاينة "تشابه أُسري" (ressemblances de famille) بينها[1]، من دون الذهاب أبعد من ذلك. وبهـــذا الإعتبـــار، لايعـــد

---

[1] (أو) شبه عائلي: هو تناظر بالجملة وتناظر بالتفصيل، أي شبكة معقدة من التناظر المتداخل المتقاطع، مثل تلك التي توجد بين أفراد عائلة واحدة، حيث لا نرى قاسماً مشتركاً يكون أو لا يكون الشبه العائلي إلا به، بـــل مجموعـــة←

المنطق فاقداً للأهلية (disqualifiée)، ولكن بـــات ينظـــر إلـــى صلاحياته على انها محلية حصراً.

ج. تُبعات على الأنطولوجيا

أخيراً، يُعدِل المفهوم الجديد للغة والمنطق من علاقات اللغـــة والعالم. فكل لعبة لغة، بتحديدها "قواعد اللغـــة" (la grammaire) هي تجربة، تُباشر علاقة مخصوصة ومحددة بالعـــالم. إن نـــسبية الأنطولوجيا(العزيزة على كواين) قد أعيد توكيـــدها، ويبـــدو أنهـــا تعززت لأنها لم تعد مقصورة على مطلـــب الـــصدق وحـــده فـــي النظرية.

←سمات يمكن أن تغيب وتحضر دون أن يكون أحدها موجوداً دائمـــاً يـــربط بينها، أي كالحبل المفتول الذي ترتبط كل خيوطه دون أن يكون هنـــاك خـــيط واحد يتواصل على طول الحبل (الفقرة 66 من **التحقيقات**)، المصدر نفـــسه، ص490. (المترجم)

8. أوستن: كلمات من أجل الفعل

من خلال مقولة لعبة اللغة وبيان أهمية الإستخدام حتى في تحديد المعنى، ساهم فتجنشتين في إثارة حساسية الباحثين إلى بُعدَ الأفعال (dimension actionnelle) في اللغة. ومع أن خط الإنتساب إلى فتجنشتين لم يكن مباشراً، فإن فلاسفة أكسفورد[1] سيقومون بإستكشاف وتحليل وتوضيح هذا البعد. وفي هذا المشروع ستفصح أعمال أوستن عن نفسها في شكل خاص. إذ

---

[1] إتخذت الفلسفة الإنجليزية المعاصرة "فلسفة التحليل" منهاجاً. ولما كان جورج مور ورسل الأستاذان المرموقان في جامعة كمبردج في أوائل القرن العشرين المنصرم، فقد سميت مدرستها الفكرية "مدرسة كمبردج في التحليل"، وتبعها فتجنشتين أول أمره حين كان طالباً فيها مأخوذاً برسل في رياضياته ومنطقه، ومن ثم طرأ تغير أو تطوير لمواقفه الفلسفية في الفترة من 1930-1947، وهي فترة إقامته أستاذاً للفلسفة في كمبردج خلفاً لجورج مور، كما أن رسل كان قد أبعد عن كمبردج في تلك الفترة. سجل فتجنشتين مواقفه المتطورة في محاضرات وكتب نشرت بعد وفاته، أهمها "البحوث الفلسفية"، وفيها تراجع عن مشروع اللغة المثالية والنظرية التصويرية للغة والذرية المنطقية. وتبنى ماسمي "فلسفة اللغة العادية". وقد تأثر به أساتذة الفلسفة في جامعة أكسفورد، وظهر ذلك في كتابات جلبرت رايل (1900-1976) (G.Ryle)، وجون أوستن (1911-1961) وستروصين (1919-) Strawson وغيرهم. ما أدى إلى تسمية اتجاه فلسفة اللغة العادية "مدرسة أكسفورد"، انظر، محمود فهمي زيدان، فلسفة اللغة، (بيروت، دار النهضة العربية، 1985) ص44، و46. (المترجم).

يعود الفضل إليه، في إدخال بعض التمييزات المفهومية الرئيسة والتي ماتزال فاعلة إلى اليوم، من جهة، ومن جهة أخرى إغناء تحليل اللغة وذلك في الإقرار لها بما يمكن تسميته بُعدَ الأفعال الخاص (Dimension actionnelle propre)[1].

1- بُعد الأفعال في اللغة

أ. "اكتشاف" أوستن

أ. الإنشائيات/الخبريات

في محاضرة ألقيت عام 1958 في منطقة Royaumont قدم أوستن"اكتشافاً"، بدا له خصباً وصعباً التمسك به في آن. يقوم هذا الإكتشاف على الفارق الظاهر في السلوك بين صنفين من المنطوقات: المنطوقات الإبلاغية المستخدمة("إنها تُمطر"، "القطة على الحصير") التي يسميها أوستن الخبريات... لأنها تقرر(تُخبر)

---

[1] إنطلق أوستن، فيلسوف أكسفورد، من الفكرة بأن الوحدة الصغرى للإتصال الإنساني ليست الجملة ولا أية عبارة أخرى، بل هي إنجاز بعض أنماط من الأفعال.

إن البحث عن الكلام من حيث هو فعل، ومعرفة الضروب التي يتم بها استخدام اللغة هما من المسائل الاساسية في نظرية الأفعال الكلامية التي وضعها أوستن (1962) وتابع سيرل (J.R.Searle) تطويرها. كانت مهمة نظرية الأفعال الكلامية تحديد أصناف هذه الافعال بوضع معايير ملائمة للتمييز في ما بينها.

انظر، عادل فاخوري، "نظرية الأفعال الكلامية"، **الموسوعة الفلسفية العربية**، المجلد الثاني. (بيروت، معهد الإنماء العربي، ط1-1988)، إشراف معن زيادة، ص1330، (13300-1343).(المترجم).

وجود واقعة، ومن جهة أخرى الملفوظات التي يسميها "الإنشائيات (Performatifs)" والتي تساعد تحديداً في إنجاز (إكمال) فِعل(ما): "أقدم إليك اعتذاراتي"، "صباح الخير!"، "أعدك بالمجيء"، الـــخ. زد على ذلك أن الملفوظات المختلفة هــذه لاتخــدم الغايــات نفــسها ولاتشغل في الخطاب الوظيفة نفسها، إنها تميز نفسها أيــضاً فـــي علاقتها بقيمة الصدق فالملفوظات الإنشائية تبدو لا مبالية بالــصدق أو الكذب، لأنه، كما يقول أوستن" صوغ ملفوظ(ما)، هــو القيــام بفعـــل" La philosophie analytique, cahiers de Royaumont, (Paris, éd. de" Minuit, 1962, P. 271)

ب- من قيَّم الصدق إلى قيَّم النجاح

هل يعني هذا أن الملفوظ الإنشائي (énoncé performatif) عصيٌّ على أية محاولة تقويم؟ بالتأكيد لا، فباعتباره يــساعد فـــي إنجاز الفعل، فإنه خاضع للنجاح أو الإخفاق، ويمكن حتى أن يكون "ناجحاً" (سعيداً heureux) أو "فاشــلاً" (تعيــساً malheureux)، وتحديداً بسبب الشروط التي تتحكم بالملفوظ. في الواقع، توجد عدة حالات في مقدورها جعل الملفوظ الإنشائي "فاشلاً". -أولاً: يمكــن الملفوظ أن يكون"فارغاً"(nul) أو من دون أي أثر" وخــصوصاً إذا كان من يتلفظ به ليس في الوضع الذي يفترضه الملفــوظ. علـــى سبيل المثل، إذا قلت"إفتَتحُتُ الجلسة" مـــن دون أن أكــون رئــيس الجلسة، نجد الملفوظ لا يترتب عليه أي أثر. فإذا لُفِظت من أحــد غير الرئيس، فإن هذه الجملة في أفضل الأحوال تعبر عن الحـــال. واذا لُفِظَت منه ومنه وحده، فإنها فِعــل(acte) الإفتتـــاح الفعلـــي للجلسة.

- يمكن الملفوظ أن يكون "تعسفياً" (abusif) أو "غير صـــادق" (non-sincère)، وهي الحال، على سبيل المثل، إذا قلت. "أعـــدك بأن آتي"، في حين ليس لدي النية لذلك مطلقاً، أو أعلـــم أن ذلـــك سيكون مستحيلا بالنسبة إلي.

- وأخيراً، يمكن أن يتعرض الملفـــوظ لنـــوع مـــن التكـــذيب الإسترجاعي (démenti rétrospectif) ، والتـــي هـــي الحالـــة الأخيرة من "الفشل"، حين تظهر بقية الكلام أو الأفعال في تنـــاقض مع ما تسمح الإنشائيات المتحققة كما ينبغي، بتمنيه: إذا تمنيت لـــك القدوم الميمون، لايمكنني عندها وبعدها أن أهينك وأعاملك كدخيل، من دون الوقوع في شكل مخصوص من التناقض، والذي يـــسميه أوستن "القطع في الإلتزام"(Rupture d'engagement).

ب. قسمة صعبة

أ- مسألة المعايير

حتـــى اللحظـــة، بـــدا التمييـــز إنـــشائيات/خبريـــات (performatif/constatif) خصباً وعملانياً في آن. ولكن، وعقب محاضرة عام 1958 أقر أوستن بحيرته، وخصوصاً حـــين واجـــه مسألة معرفة المعايير التي تسمح بتحديد ملفوظ ما بأنه إنـــشائي أم لا.

- من دون شك يمكن إعتبـــار أن الملفـــوظ الإنـــشائي يقبـــل شكلين"عاديين"، تكون الإنشائية (performativité) فيهمـــا بيِّنـــة. الأول، ("أعِدُك أن..."(Je vous promets de...) يتضمن فعـــلاً "مضارعا" في صيغة المتكلم المفرد، في حالـــة المبنـــي للمعلـــوم

(à la voie active) الثـــاني، "يُرجـــى مـــن المـــسافرين... "
(les voyageurs sont priés...) يتضمن فعلاً مضارعاً مبنـــي للمجهول، في صيغة المخاطب أو الغائب.

ولكن أوستن بقي مقتنعاً بأن هذه الأشكال قد لايتم التقيد بهـــا، ومن دون إلحاق الضرر بالطابع الإنشائي للملفوظ المعني. واعتبر هكذا أن الملفوظ "أغلق الباب" (fermez la porte) يعادل "آمـــرك أن تغلق البـــاب" (Je vous ordonne de fermer la porte!)، والنتيجة أنه إنشائي كما العبارة الأولى مع أن التركيـــب مختلـــف. فالفعل لايقوم إلا بإيضاح ما أنجزه الملفوظ، ولكـــن قيمـــة إنجـــاز (إكمال) الملفوظ لايضيرها حضور أو غياب هذا "التدقيق". السبب الذي دفع اوستن للإستنتاج بعدم وجود معيار من القواعد أو الفعـــل لتمييز أكيد للإنشائي من غير الإنشائي.

ب- تردد أوستن

يضاف إلى هذا صعوبة أخرى هي الخبري(le constatif)، فإذا عايناه من قرب وجدنا أنه مُحمل بقيمة الفعل ومعـــرض هـــو أيضاً "للنجاح والفشل"، ما يجعل في الآن عينه من التمييـــز الـــذي جهد أوستن في إقامته هشاً. أدرك أوستن هذه الـــصعوبات، ولـــم يتردد مع ذلك في الإستنتاج وبشدة متطرفة، ولكن بـــإدراك أكيـــد للمهمات المقبلة لفلسفة اللغة "نحن في حاجة لنظرية عامة لأفعـــال الخطاب(actes de discours) وفي هذه النظرة ســـتجد نقـــيض الاطروحة(antithèse)إنشائي/خبري الخاصة بنا، صـــعوبة فـــي البقاء"(المصدر نفسه، ص279).

2- من الإنشائي إلى الفعل في القول (Illocutoire)

في البداية جرى تصور مقولة الإنشائي لتمييز طبقة محـــددة من الملفوظات ذات السلوك المخصوص، وانتهت(أي المقولة) لتدل على قيمة الفعل، التي حازت عليها بعض الملفوظـــات بمـــا فيهـــا الخبريـــات(constatifs) فـــي بعـــض مواضـــع الـــورود (occurrences). إذاً، إنه بُعد الفِعل في اللغة هو ما تدعونا هـــذه المقولة إلى إعادة تفكره وهو ما يقوم به أوستن في مؤلفه الـــشهير "عندما يعني القول الفعل" [كيف تصنع الأشياء بالكلمات]
(Quand dire, c'est faire = How to do things with word) (1962).

أ- ماذا تصنع بالكلمات؟

أ- فعل بوساطة اللغة، فعل اللغة

إن إظهار اللغة لبُعد الفعل فيها ليس جديداً، فقبل فتجنـــشتين تَعرف التقليد البلاغي عليه واستفاد منه: فماذا يعني توليد تـــأثيرات في المستمعين من خلال تقنيات الخطاب، إن لم يكن الفعل بوساطة اللغة؟ إلا أننا ببساطة مدعوون إلى ملاحظة أن التـــأثير موضـــوع المسألة(الإقناع) من خارج اللغـــة(extralinguistique)، مجـــرد نتيجة للخطاب، والذي هو جزئياً يأتي إتفاقاً: فالكل لـــيس مقتنعـــاً، وأولئك المقتنعون لم يقروا للأسباب نفسها... غير أن بُعـــد الفعـــل وعقب فتجنشتين، وضعه أوستن بجد في الإعتبار ولم يُستنفد فـــي "توليد التأثير" وحده: في الواقـــع، هنـــا، مـــازال القـــول والفعـــل منفصلين، في حين باتت رؤية أوستن من الآن وصاعداً أن القـــول والفعل يمثلان كلاً واحداً.

ب- فعل القول (locutoire)، الفعل في القول (illocutoire) الفعل بالقول (perlocutoire)[1]

---

[1] ثمة إجتهادات عدة في وضع هذه المصطلحات الثلاثة بالعربية، فعلى سبيل المثل يترجمها منصور العجالي كالآتي:

- فعل التلفظ Locutionary Act
- فعل قوة التلفظ Illocutionary Act
- فعل أثر التلفظ perlocutionary Act

في ترجمته وعرضه "فعل الكلام... كيف تنجز الأشـــياء بالكلمـــات- نظريـــة أوستن"/ العرب أونلاين. 2003/7/30

في حين يترجمها دغفوس على هذا النحو:

1- العمل القولي L.A

2- العمل المتضمن في القول IL.A

3- عمل التأثير بالقول per.A

سيف الدين دغفوس، مترجم كتاب آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، (بيروت، المنظمة العربيـــة للترجمـــة، 2003)، أمـــا الدكتور صلاح عبد الحق فيترجمها:

1- الفعل التعبيري L.A

2- الفعل الغرضي IL.A

3- الفعل التأثيري per.A

انظر، التحليل اللغوي عند مدرسة اكسفورد، (بيروت، دار التنـــوير، 1993)، ص183.

ونحن اعتمدنا الترجمة التي وضعها عادل فاخوري لها ولمصطلحات أوســـتن الأخرى، وهو يشرح تركيبها على النحو الآتي:

أ- فعل القـــول Locutionary act وأيـــضاً: الفعـــل القـــولي (أو: القـــول Locution) مجرد القول هو بحد ذاته فعل وذلك من أكثر من وجه.←

ولكن ماذا يعني أن القول هو الفعل(صـــنع الاشـــياء بالكلمـــات)؟ فالأصطلاح يتقبل بوضوح عدة معان يجب التمييز بينها ومن ثـــم التلفظ بها. فقول شيء ما، هو فـــي المقـــام الاول توليـــد بعـــض الأصوات(البُعدَ الصوتي): أبداً(point)، أحد مـــا(quelconque)، غيـــر أن (toutefois)، لأن هـــذه الأصـــوات أيـــضاً ألفـــاظ (vocables) أو كلمات، وحدات لغوية يطَلق عليها أوســـتن إســـم "phèmes" (الوحدة الصرفية التركيبية). نتلقى أخيراً في الخطـــاب معنى (un sens) وإسناد (référence) (مرجع) محدد بهذا القدر أو ذاك، يحولها إلى "rhèmes" (الوحـــدة الدلاليـــة)[1]، وحـــدات إستدلالية(entités discursives). هذه "المكونات" الثلاثة مأخوذة مع بعضها تشكل "واقعة القـــول"(le fait de dire)، مـــا يـــسميه أوستن فعل القول(أو الفعل القولي) "l'acte locutoire".

- لكن عند قول (en disant) ما يقول، ينجز المتكلم أيضاً فعلاً يسميه أوستن "الفعل في القول" (illocutoire)، لأنه لايوجد مكان

←ب- الفعل في القول (illocutionary act)، وأيضاً: الفعل الـــداخل فـــي القول (أو الما في القول- illocution) (تركيب لاتيني مـــن: فـــي = in، و: قول، كلام= locutio). والفعل يتم إنجازه في قول ما. ومن لوازم هذا الفعل أن تختص كل عبارة بقوة أو بقيمة داخلة في القول (illocutionary force)، مثل التوكيد والأمر والوعد والتمني والعقد...الخ. أما تعيين تلك القوة فيعـــود إلى أصناف العبارات والسياق الذي تُنطق فيه.

"نظرية الأفعال الكلامية"، الموســـوعة الفلـــسفية العربيـــة، المجلـــد الثـــاني، ص1332.

[1] ترجمة مصطلحيِّ Rhème و Phème من صلاح عبد الحق، التحليـــل اللغوي عند مدرسة اكسفورد، ص184. (المترجم).

آخر أو وسيلة أخرى غير اللغة للإنجاز. على هذا النحو، بلفظنا "ينام القط"، أؤكد أنه ينام، وعند قول "أنظر، إنها تمطر"، أثبت ذلك... ألخ. إنها بالتأكيد أفعال، ولكن لا يمكن إنجازها خارج اللغة، ولا بطريقة أخرى غير توليد خطاب، لهذا من الملائم الكلام هنا عوضاً عن الفعل "بواسطة"(par) اللغة، الكلام عن فِعل اللغة(action du langage).

مع أن الفعل "بواسطة" اللغة يُحيل إلى نمط آخر من الفعل، الفعل بالقول(perlocutoire)، الذي يتعلق هذه المرة بالتأثيرات التي أتركها في المستمعين "بواسطة القول" وليس "عند القول" (en disant).

ج- الربط (articuler)

نرى جيدا أن المظاهر الثلاثة متلازمة: فالتلفظ بـ "X" أي فعل القول (acte locutoire) يقوم على إنجاز "Y" أي الفعل في القول (acte illocutoire) ويسمح بتوليد "Z" فعل القول (acte perlocutoire) هكذا، اذا قال أحدهم "P" فأنه يدعم هذا القول في الآن عينه ويمكن أن يُقنع به. فإذا تحددت الدلالة منذ فعل القول، فإن الفعل في القول بالمقابل لايزال يحمل بعض قيمة فِعلِيَّة (valeur actionnelle) وحتى تواصلية، قابل لأن يُحدِث بعض التأثيرات. ومن الواضح أن القيمة(valeur) والتأثير(effet) ليسا حياديين بإزاء الدلالة نفسها:

أفلا يتضمن فهم ملفوظ ما، إلى جانب تحديد معناه اللغوي وفي الوقت نفسه تحديد قيمته واستباق تأثيراته المحتملة؟

ب. من الألعاب إلى أفعال اللغة

أ- ما يتغير

بإدراجه مفهوم "لعبة اللغة"، كان أمل فتجنشتين جذب الإنتباه إلى وجود اللغة التي استبعدها الإصلاحيون. ففي مقابل المفاهيم "النحوية(التركيبية) المحض للدلالة والصدق، أظهر مزايا حقوق الإستخدام وثبات بُنية السياقات. ومن خلال مجاز اللعبة، توصل إلى الربط(articuler) بين عدة أبعاد للغة: الفعل(L'action)، لأن اللعب يشكل نوعاً من السلوك، والقاعدة (la Régle)، لأن اللعب يفترض إحترام بعض القواعد، والبعد الإجتماعي، لأن هذه القواعد تؤخذ على أنها مشتركة. وأكثر من ذلك، من خلال الإقرار بأن ألعاب اللغة تحيل قطعياً إلى أشكال من الحياة. فإنه أدرج الكفاءة(compétence) اللغوية في قلب الكفاءة التواصلية الأكثر عمومية، والتي هي في شكل أساسي محددة ثقافياً. وأخيراً، ومن خلال الإعتراف بالطابع اللامحدد لألعاب اللغة، يأخُذ عِلماً بإبداعية اللغة غير المحدودة ظاهرياً. والحال، ولأعتبارات عديدة، يبدو البناء الأوستيني(نسبة إلى أوستن) وكأنه محاولة لمنهجة (Systématisation) الأفكار المتقدمة لفتجنشتين. هل يبدو ذلك مثابة تعد على ذهنية وحرفية "التحقيقات الفلسفية"؟ ولكن أوستن لم يعد يتشاطر المفهوم العلاجي للفلسفة الذي أشاد به سلفه (أي فتجنشتين)، وآمن بالفضائل التفسيرية إلى جانب الوصفية في التحليل.

ب- محاولة وضع علم قوانين التصنيف

جهد أوستن في شكل خاص كي ينظم ويرتب في "علم قوانين التصنيف" (Taxinomie) ما بات يُطلق عليه "أفعـــال الخطـــاب" (les actes de discours) بضمهم في مجموعات وفقاً لقيَّم الفعل في القول(valeurs illocutoires) التي يرتديها قيامها في ســـياق (ما). وبعد محاولات عدة، توصل إلى الإحتفاظ بخمس "طبقات من الملفوظات" مثابة خـــصوصية مميَّـــزة (spécifications) لبُعـــدَ الأفعال هذا المعترف به من الآن وصاعداً في كل ملفوظ.

- أولاً، ملفوظات الأحكام (أو الحُكْميـــات) (les verdictifs)، الخاصة بأي ملفوظ يعود للإعلان عن حكم سواء من طرف هيئة مُحَلفين أو قاض أو حَكَم.

- تالياً، ملفوظات الممارسة (أو المِراسيات) (les exercitifs)، الشاهدة على ممارسة سلطة أو قانون أو تأثير من طرف المتكلم.

- ملفوظات الوعود (أو الوعْديات) (les promissifs) والتـــي يتعاقد المتكلم من خلالها ويرتبط.

- تأتي تاليـــاً ملفوظـــات الـــسلوكات (أو الـــسلوكيات) (les comportatifs)، التي تُظهِر إحترام أو تبن لبعض المواقـــف أو السلوكات الإجتماعية (تمني الوصول بخير، الشكر، التعبيـــر عـــن الأماني...).

- وأخيراً، ملفوظات التفسير (أو التبيينات) (les expositifs)، وسميت كذلك بسبب الوظائف التي تؤديها في عمليـــة المحاججـــة (أفترض أن... أستخلص من ذلك أن...).

ج- ملاحظات

بالإنتقال من الألعاب إلى أفعال الخطاب، بدأ التحليل يـــصبح أكثر دقة. فبالنسبة إلى فتجنشتين، أن تروي قـــصة، أو أن تـــؤدي قطعة مسرحية أو تؤدي صلاة أو تعطي أوامر، فهذه كلها ألعـــاب لغوية. يتعلق الامر إذاً بصيغ مخصوصة في إســـتخدام الخِطـــاب، تندرج في ممارسات ميزتها كانت تحديد بعض إستعمالات اللغـــة. والآن، بات التمييز يجري في قلب ألعاب اللغة نفسها، على صعيد الملفوظات المكوِّنة لـ "اللعبة". وهكذا، على سبيل المثل، يمكن لنـــا الإشتباه في أن "الصلاة" تستخدم وفي آن معاً ملفوظات الـــسلوكات (عليـــك الـــسلام، يـــامريم...) (je vous salue, Marie...) وملفوظات الوعود (أتخذ القرار الحـــازم...) (Je prends la ferme résolution...) وملفوظـــات الممارســـة مـــن النـــوع المخصوص(صلوا من أجلنا، أيها الخُطاة المـــساكين...) (Priez pour nous, pauvres pécheurs...).

د- خُلاصات

والحال، بدا مستطاعاً أو أقله ممكناُ النظـــر لا فـــي ترتيـــب مختلف الإستخدامات بطريقة صارمة داخل "علم قوانين التصنيف" (Taxinomie) فحسب، ولكن أيـــضاً أبـــراز الـــشروط الماديـــة (الإمبيريقية) كما الصوريِّة (المنطقية- اللغوية)، لكـــل فئـــة مـــن الملفوظات التي جرى الحفاظ عليها ووَجَبَ أن تستجيبها لتأمل فـــي إمكان أداء دورها بنجاح. وفي المدى القـــصير يعنـــي هـــذا فـــتح الطريق لإعادة إدخال التحليل المنطقي في قلب نظريـــة إســـتخدام اللغة نفسها.

9. نظرية أفعال اللغة

أدرك أوستن باكراً جداً ضرورة التوصل إلى مذهب (Doctrine) قادر وبشكل موحد على معالجة أغلبية أفعال الخطاب. وقد رسم الخطوط الأولى لأعماله، وخصوصاً محاولته إقامة علم قوانين التصنيف (Taxinomie) ، بيد أنه لم يتجاوز هذه المرحلة المذكورة. وسيعود لخلفائه وخصوصاً سيرل (Searle) وفاندرفيكين (Vanderveken) ، مهمة إنجاز البرنامج الأوستيني (نسبة إلى أوستن) وإضفاء طابع النظرية على مذهبه.

1- من المذهب إلى النظرية

لقد أدوا مهمتهم بتفوق، وتحديداً عملية الوصف المنظم لتوليد العبارات في لغة (ما) (Formalisation) والذي سيتوج بإنشاء "منطق الما في القول" (Logique illocutoire) والذي يسمح للتحليل المنطقي أن يلتحق بالمجال السائل والمتغير على نحو غريب لاستخدام اللغة.

أ. نحو تعريف فعل اللغة

أ- نقطة البدء

حفظ سيرل(1932) عمل أوستن ان كل ملفوظ، حتى ولو كان خبريا (Constative) ، يمكن له في السياق أن يرتدي قيمة فِعلِيَّة (Vateur actionnelle) فالتكلم (Parler) بالتأكيد شكل من

السلوك، ولكن هذا الأخير لايصبح حاملاً للدلالـــة (Vecleur de signification) إلا في ظل بضعة شروط، يجب إبرازها وايضاح صيغها العملياتية. وهذا ما أنكب عليه سيرل أولاً، في مؤلفه أفعال اللغـــة (Speech Acts, 1969)(Les actes de langage, 1972)

ب- ماذا يعني التكلم بحسب سيرل؟

تبعاً لدرس بـــول غـــريس (P.Grice 1913- 1988) فـــي "المعنى" (Meaning, 1958)، حفِظ سيرل فـــي المقـــام الاول أن التكلم سلوك قصدي (Comportement intentionnel)، مايعني أنه يجب أن يكون واضحاً عند المُتلقيِّ (allocutaire) بأن السلوك اللفظي للمتكلم يُفترض أن يكون محملاً بـــالمعنى. يتعلـــق الأمـــر مجدداً بسلوك تحكمه قواعد ذات طبيعـــة متنوعـــة. لأنـــه، وإزاء القواعد اللغوية المحض (اللسانية linguistiques) والتـــي تحـــدد قواعدية (grammaticalité أي إستجابته شروط قواعـــد اللغـــة) التعبير المستخدم، من الأنسب إضافة تلـــك التـــي تخـــص وضـــع الملفوظات في التداول الإجتماعي، والتي تحدد بالتالي ومن بـــاب أولى ظروف توليد الملفوظات (التلفظ) (les énonciations) (أو بُنية القول) بدلاً من الملفوظات (les énoncés).

ب. لحظتا المسار

أ- في الوصف

تحقيق فعل اللغة مرتبط إذاً باحترام جملة من الشروط يسمح الوصف بتحديدها، والتي يتوجب بيانها في التعريف "الشكلي" لفعل اللغة. ميزة سيرل أنه وضع في الحسبان إلى المخطـــط الوصـــفي

المنظم لتوليد العبارات (plan formel) تحديداً، البُنيـــة (النـــسق structure) كما اشتغال الفعل في القول (acte illocutoire).

في ظل بعض الشروط يُشكل ظرف توليد الملفوظ (الـــتلفظ) (l'énonciation) في سياق ملفوظ مخصوص إتماماً لفعـــل فـــي القول، وهو ماتم فهمه من المستمعين الأكفاء. فإذا، ما كنت علـــى الطاولة وقلت لأحد الضيوف: "أيمكنك الوصول إلى المملحة؟"، فإنه سيعطيني الغرض ويعرف أن هذا هو "الرد" الوحيد الملائم. هـــذا يعني أن سؤالي (نمط نحوي في الملفوظ) يشكل في الواقـــع طلبـــاً (الفعل في القول)، وعلى هذا الشكل فَهِمُه. نعم، الأمر علـــى مـــا نظن، فإن "الفعل في القول" حقاً هو ماجرى فهمه. إذاً، لم تعد تؤول إلى القضية وحدها وظيفة "حامل الدلالة": لقد أصـــبحت مـــن الآن وصاعداً أفعال اللغة هي وحدات الدلالة في إستخدام وفهم اللغـــات الطبيعية.

ب- نحو الوصف المنظم لتوليد العبارات(*)

(à la formalisation)

يتواشج فـــي فعـــل اللغـــة مُكونِـــاً قـــضوياً(مـــن قـــضية) (propositionnelle) ومكوناً فِعلياً (actionnelle) والذي يسميه

(*) أو النسق الصوري (الشكلي). فكما يقول السيد نفادي: إن البحث أو المنهج أو المفهوم المتعلق بتعبيرات اللغـــة يـــسمى صـــورياً (formal)، إذا كانـــت استدلالاته التطبيقية لا تتعلق بدلالة التعبيرات وإنما بـــصورتها فحـــسب، أي بأنواع العلامات التي تكوّن تعبيراً ما والترتيب الذي به يتكوّن.

نقلاً عن، السيد نفادي "السيميوطيقا وعلاقتها بالفلسفة والعلم عنـــد كارنـــاب"، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد 31، يوليو/ ســـبتمبر 2002، ص54. (45-76).(المترجم).

سيرل من بعد أوستن(وفريجه) "قوة" داخلة في القول (la "force" illocutoire) بُنيته ثنائية: قضية (محتوى قضوي) تمارس "القوة" أثرها فيها؛ شكلياً: F (p) (قوة(قضية)). بتطبيقها على المحتوى القضوي، تميز القوة في السياق قيمة فعل توليد الملفوظ (l'énonciation)، على هذا النحو، هل القضية "جان يدخن" تعبر بدورها عن إثبات (توكيد،)، عن تمني (حبذا أن جان يدخن!)، عن سؤال (هل جان يدخن؟) عن أمر (دخِن، جان!)... الخ. والحال، فهذا العرض لفعل اللغة يسمح القيام بتحليل، وإنطلاقاً من بيان مكونات القوة الداخلة في القول، يتيح قيام علم جديد لقوانين التصنيف (Taxinomie)، مازال ينظر اليه على أنه "كلاسيكي".

2- قوانين التصنيف لأفعال اللغة

كي نفهم كيف "تعمل" القوة الداخلة فى القول، من المناسب تحديد مختلف العناصر التي تستخدمها. سيرل (التعبير والمعنى) (expression and Meaning; 1971) وفندرفيكين (أفعال الخطاب) (les actes de discours, 1988)، أبقيا على ستة، كُلية الحضور رغم التغيرات المحلية، ويمكن عندها أخذها على أنها مكونَةَ (constitutifs).

أ. "مكونات" القوة الست

أ- الهدف الغرضي (Le but illocutoire)

(أو الغرض الداخل في القول)

المتكلم الذي يستعمل في سياق (ما) ملفوظاً مزوداً ببعض القوة، يُريد من ذلك في الآن نفسه إنجاز فعل ما، والحصول على

بعض الاشياء. أطرح سؤالاً، لأني أرغب في معلومة، أُعطي أمراً لأني أريد منك أن تنجز عملاً ما... الخ. علـــى ظـــروف توليـــد الملفوظ أن تسمح إذاً للمتلقيّ أن يحدد الغرض الداخل في القـــول، والذي يُعطي "قصد المعنى" (L'intention de sens) عند المتكلم. الغرض الداخل في القول مكوِن جد مُهم للقوة، جزئياً لأنـــه يحـــدد التالي:

ب- إختلاف في إتجاه المطابقة

بين الكلمات والعالم (La direction d'ajustement)

يُلاحظ سيرل أن ملفوظاً ما لايمكن إذاعته إذا لم يلتزم علاقة ما بين اللغة والعالم: ففي حين يقـــول الإثبـــات (assertion) (أو التقرير) ماهي عليه الاشياء، على اللغة هنا "التكيـــف" مـــع حـــال الاشياء حتى يكون الإثبات صحيحاً. فالامر لا يُطاع أو يحافظ على الوعد إلا إذا "غيَّر" حدث (ما) حال الاشياء ليجعلها ملائمـــة لمـــا تنطق به القضية. الأمر الذي أوجهه اليك لتغلق الباب يفترض أنـــه ليس كذلك، ولا يُطاع (= يتحقق Succès) إلا اذا وُجد الباب مغلقاً في اللحظة التالية بعنايتِكَ. وجهة المطابقة هي هنا من العالم إلـــى اللغة[1].

---

[1] لقد اعتمدنا على ترجمة د.عادل فاخوري للمـــصطلحات التـــي اســـتخدمها سيرل، وهو يفصل "إتجاه المطابقة" كالآتي:

..."من لوازم غرض بعض الأفعال الداخلة في القول جعل الكلمات، أو على وجه التدقيق، محتوى القضية مطابقاً للعالم أي للخارج، بينما غرض الـــبعض الآخر هو جعل العالم مطابقاً للكلمات. فالخبر مثلاً هو من الفئة الأولى، أما←

ج- الشروط التمهيدية (Les conditions préparatoires)

لا يُنجز الفعل في القول عملياً إلا إذا جرى الإلتزام بـــبعض الشروط التي تعود لجملة من الإفتراضات، يقود عدم التـــقـــيد بها إلى جعل الفعل غير مؤثر (acte inopérant). فـــــهكذا، لـــيس في مـــقـــدوري إعطاء أمر اذا لم يكن عندي سلطة على المتلقّـــي، ولا أستطيع أن آمُرَك بشيء ليس في مستطاعك القيـــام بـــه. وأي خـــرق بالنســـبة لـــهـــذه الشـــروط المســـبقـــة يجعـــل الفـــــعل مـــُختـــلاً (défectueux).

د- شرط الصراحة

(La condition de sincérité)

كي يكون حـــقـــاً، على الفـــعل أن يكون صريحاً أيضاً، أي أن على الـــمتكلـــم أن ينويِّ حقاً ما يُظهره الغرض الـــداخل فـــي القول للفعل المنجز. اذا أكـــدت، أعتقد، إذا طلبـــت، أرغـــب، إذا وعدت، لدي النية في... الخ.

هـــ- شرط المحتوى القضوي

(La condition sur le contenu propositionnel)

في بعض الحالات، من المهم أن يُلبي المحتوى القضوي بعض الموجبـــات، وإلا فإن الفـــعـــل كأنه لم يكن. وهذا واضح في حال

←الطلب والوعد فهما من الفئة الثانية... هذا الفرق في الخاصـــية المـــذكورة يطلق عليه سيرل إسم الإختلاف في إتجاه المطابقة" أنظر، "نظريـــة الأفعـــال الكلامية"، **الموسوعة الفلسفية العربية**، الجزء الثاني، ص1334.(المترجم).

الوعد، لأني لا أستطيع قطع الوعد إلا باسمي الخاص، ولا أستطيع أن التزم إلا في فعل مستقبلي:
القضية تكون حينها بصيغة المتكلم وفي المستقبل.

و- إختلاف في العزم في عرض الغرض الداخل في القول
(Le degré de puissance du but)

أخيراً، الغرض الداخل في القول يمكن أن يَظهر بطريقة قوية إلى هذه الدرجة أو تلك: التطلب (exiger) هو أكثر من الطلب (demander)، التوسل (supplier) هو أكثر من الرجاء... (prier) الخ.

ب. مترتبات على قوانين التصنيف

أ- وضع معيار للتصنيف

ميزة تحليل مكونات القوة أنها قدمت معياراً يسمح بترتيب أفعال الفعل في القول بدقة لم يستطع أوستن بلوغها. ويمكن إتجاه المطابقة بين الكلمات والعالم أن يؤدي هذا الدور، حسب سيرل. لاشك، ثمة تنوعاً لامحدوداً لإستخدام ممكن للغة ولأفعال الفعل في القول كذلك، ولكنها ترجع لعدد صغير من "الأنماط"، لأن وسائل المطابقة بين اللغة والعالم محدودة العدد.

ويَسمح إتجاه المطابقة بتحديد القوى الداخلة في القول "الأولية" (primitives)، والتنوع اللامحدود للأفعال في القول المتفرعة من هذه الأخيرة بواسطة لعبة مفتوحة نسبياً لمكونات القوة الأخرى، ولكن الثابتة بإزاء السياقات المختلفة.

ب- التصنيف

يُبقي سيرل على خمس قوى "أولية" تـــسمح بتوليـــد مجمـــل الأفعال في القول الممكنة من خلال تطبيق بعض العمليات المُعادة. هذه القوى "الأولية" هي:

1- **قوة الإثبات** (La force assertive) (**الإثباتيات**)، حيـــث وجهة الضبط هي اللغة ←العالم. توكيد، ملاحظة، إســـتنتاج... الخ. تتأتى من هذه القوة، وتوافق الملفوظ مع حال العالم الموصوف يضمن في هذه الحالات صدق الملفوظ.

- **القـــوة الموجهـــة** (La force directive) (**التوجيهيـــات**)، وتخص الأفعال التي بواسطتها يحاول المتكلم الحصول على تغيير في العالم، وهذا التغيير هو من صلاحية أو من مسؤولية المتلقّـــي. وجهة المطابقة هنا ← العالم اللغة، لأنه يجب "تحويل العالم لجعله "ملائما للملفوظ.

- **القـــوة الوعديّـــة (الوعـــديات)** La force engageante (promissive)، وتخص الأفعال حيث إنجاز التغيير في العالم هو بمبادرة أو على عاتق المتكلم. وجهة المطابقة هي نفس الموجـــودة في الحالة السابقة، يتغير "المسؤول" عن التغيير المنشود فحسب.

- **القوة التصريحية (التـــصريحيات)** (la force déclarative)، وتخص كل الافعال التي من خاصيتها إنشاء الموقف فـــي الوقـــت نفسه التي تصفها فيه. على سبيل المثّل، حين يُعلن الرئيس "فُتحتَ الجلسة"، نجد الملفوظ صحيحا لأن الجلسة إفتتحت بطبيعة الحـــال (Ipso facto) في نفس اللحظة التي جرى فيها توليـــد الملفـــوظ. يصف الملفوظ إذاً تغييراً في العالم حصل بواسطة عمليـــة توليـــد

الملفوظ نفسه. من هنا نرى، يلاحظ سيرل، تقاطع وجهتي المطابقة في الملفوظ: اللغة ⟵ العالم حيث يصف واقعة حاصلة؛ العالم ⟵ اللغة حيث يصف ماقد أقامه. "الإتجاه المزدوج" هو إذاً خاصيّة الفعل التصريحي (déclaratif).

- **القوة التعبيرية** (la force expressive) **(البوحيات)**، والتي تتميز بغياب الصلة بين اللغة والعالم: تعبير بسيط لحالات نفساوية يمكن أن تكون مستقلة. أي غير متلائمة مع موقف معين. "الوجهة الفارغة" (La direction vide) هي خاصية الفعل التعبيري (I'expressif) (أو البوحي).

3- فتوحات وآفاق جديدة

أ. عودة المنطق

تميزت بحوث سيرل وفندرفيكين بمنهجها كما بالذهنية التي سادت فيها، عن تلك التي اعتاد أوستن ممارستها. فمكان توصيفات هذا الأخير الدقيقة، ذات الفضل في تعيين الفوارق الدقيقة، في استخدامات اللغة والشائبة التي تخللتها في عدم استجابتها إلا بشكل غير كامل لمختلف المعايير التي إقترحها (أوستن) من أجل ترتيبها، سيُحل الآن تحليل يتجه بالكامل نحو وصف منظم لتوليد العبارات (النسق الصوري) والذي سينتصر عام 1985 في المؤلف الجمعي Foundations of illoctionary logic (Fondements de la logique illocutoire) «أسس منطق الما في القول»، حيث الإستدلالات فيه معتبرة من نواح عدة.

أ- تجديد المنطق

لأنه وبعد فاصل زمني من المقاربـــات "الوصـــفية" للغـــات الطبيعية، وقع تجديد في التحليل المنطقي. ففـــي الواقـــع، يجـــب الإقرار بأن "إنكفاء" المناطقة كان لمدة قصيرة. فما إن وضع نقـــد التيار "الإصلاحي" اللغة العادية في مقدم المـــشهد حتـــى انبـــرى المناطقة لإدراك طبيعتها واشتغالها بأدوات منطقية، وحتى مُبتدعة للمناسبة إذا دعت الحاجة لذلك، وهذه المرة من دون الإنشغال بِهَم الإصلاح، ولكن يمكن وفي تواضع لمجرد الشرح. وقد قادها كـــل مـــن أ. شـــرش (A.Church)، د. لـــويس (D.Lewis)، د. كـــابلان(D.Kaplan)، ج.هنتيكـــا (J.Hintikka)، س. كريبكـــه (S.Kripke)، ر. مونتاغ (R.Montague)، ولم تكتـــفِ، هـــذه الاعمال "بإعادة" حقوق التحليل المنطقي، بل ساهمت في تجديده في العمق وتوسيع صلاحياته على نحو مُعتبر.

ب- الأراض الجديدة لرجل المنطق

بعيداً من إنصرافه إلى القـــضايا البوحيِّـــة (Propositions déclaratives) فحسب، سيتـــصدى التحليـــل اللغـــوي مـــن الآن وصاعداً لملفوظات من أي نمط نحوي (تركيبي) كانـــت، ويُحلـــل بالتفصيل مسلكها في السياق (comportement en contexte). وهكذا وجد المنطق "الكلاسيكي" لفريجه ورسل نفسه، شيئاً فـــشيئاً، وقد بُدِلَ بـ "بناءات" مختلفـــة: المنطـــق المفهـــومي(المـــضموني) (la logique intensionnelle) الخاص بشرش ولويس والـــذي بات يُعالج القضية مثابـــة "معنـــى الملفـــوظ" (sens d'énoncé)؛

ومنطــق "المواقــف القــضوية" (la logique des "attitudes propositionnelles") العائد لـ: هنتيكا وكريبكه والــذي يعــالج القضية مثابة "محتوى الحالات العقلية"، وعلم دلالة ثبت المفــردات (La sémantique indexicale) لكابلان والــذي يفــتح سِــجل الاشياء التي تُعرَف بالإشــارة (Registre d'ostension) أمــام التحليل؛ والبراغماتية (التداولية) الشكلية لمونتــاغ، والــذي يُبــين إمكانية وصف منظم لتوليد العبارات (formaliser) لأجزاء كاملة من اللغة الطبيعية.

ب. مكانة منطق الما في القول

أ- منطق الاستخدام

يُجري منطق الما فــي القــول (la logique illocutoire) توليفاً إندماجياً يسمح أخيراً بالوصل في نظريــة "تــصف توليــد العبارات" (Théorie formalisée)، مــا بــين جوانــب "قابليــة الصدق" (vériconditionnels) ولما في القــول (illocutoires) التي تظهرها أفعال اللغة.

منظوراً إليها كـ "معنى الملفوظ"، و"مــضمون الافعــال فــي القول"، و"مضمون الحالات الذهنية"، لم تعد القــضايا تقــوَّم فقــط بحسب قيَّم الصدق وحدها، ولكن أيــضاً وفقــاً لنجــاح (succès) الافعال (أي كونها موفقة) حيث تظهر، داخل وصف لتوليد العبارة (formalisme)، موحد أخيراً.

ب- منطق فلسفي

بات جلياً أن العلاقات المنطقية التي تَعمل في إستخدام وفهـــم اللغة ليست من طبيعة قضوية (propositionnelle) فحسب: إنها تتعلق أيضاً بالقوى (les forces) والأفعال في القــول. ظــروف توليد العبــارة(الــتلفظ) (L'énonciation) فــي ســياق بعــض الملفوظات تتيح إنجاز فعل في القول، والذي هو منطقيــاً مــشدود لأفعال أخرى ممكنة في عالم الخطاب. والحال، يُظهر المتكلمــون عادة قابليتهم لإمتلاك ناصية هذه "الشبكة" معرفياً. تذهب كفــاءاتهم الإستدلالية(inférentielles) إذاً إلى ماهو أبعد من مجرد علاقــة تضمنية بين القضايا، جرى تفضيلها طويلاً. يسمح منطق الما فــي القول وعلم الدلالة العام (La sémantique générale) الذي يعد إمتداداً للأول عند فندرفيكين، بإعادة بنــاء أنمــاط مختلفــة مــن الإستدلال: "قابلية الصدق" (Vériconditionnelle) بقدر الما في القول، وتحديد علاقتهما المتبادلة. ليس حيث تنعقد، ولكن بإزاحتها، مع محاولة فتجنشتين رسم الحدود بين ما يمكن قولــه (dicible) وما يمكن التفكير به (pensable) من داخل اللغة لأنه، ومن الآن وصاعداً، لم تعد هذه الدالة (fonction) قائمة في الشكل المنطقــي للقضية وتماثلها (أو تشاكلها Isomorphism) مع الوقائع، ولكــن داخل بُنية منطقية للأفعال في القول والتي من الممكــن إنجازهــا (تحديد تخوم ما يمكن التفكير به) واستجابة مطالبها (تحديد تخــوم العالم، أو التجربة).

10. أبعد من أفعال اللغة

في داخل فلسفة اللغة المعاصرة، باتت نظرية أفعـــال اللغـــة تشغل مكاناً رئيسياً. فالجهاز التصوريِّ الذي أتاحت تطويره غـــدا مطلوباً بإلحاح على نطاق واسع وذهب ليمتد في إتجاهات مختلفة.

1 – تطوير، إمتداد

تُقاس مُساهمة نظرية أفعال اللغة في فلسفة اللغة المعاصـــرة بتعيين مواضع التطويرات الداخلية التي عرفتها بدفع مـــن ســـيرل وفندرفيكين، قبل أن يتابع مفكرون آخرون المهمة. هذه التعـــديلات الأولى (أو التنقيحات)، والتي أتاحت للنظرية أن تزيد بإطراد حقل اختصاصها إلى حد إلتحـــاق نظريـــة الـــذهن (La théorie de l'esprit) بتحليلية الفعل الجمعي، تجِد مصدرها (أي التعـــديلات) في الوعي المبكر الذي ظهر لتقييدات النظرية في حالتها الأولى.

أ. نحو الأفعال المركبة

أ- الأفعال المشروطة

هكذا على سبيل المثل، سرعان ما سجلت حـــضورها مـــن واقعة أن البُنيَّة الشكلية المعتبرة في الأصل خاصية للافعـــال فـــي القول، ونعني قوة (قضية)((F (P)) [أو: ق(أ) حيث "ق" مختـــصر قوة و "أ" قضية ما] لم تكن صالحة إلا للأفعـــال الاوليـــة (actes élémentaires) ولا يمكنها الإدعاء أنها تستنفد القائمـــة الكاملـــة

للأفعال في القول الممكنة. لنأخذ الملفوظ الآتي مثلاً: "إذا ربحـــتَ، أعدك بأن أدعوك إلى المطعم". من الجليِّ أن له شكلاً أكثر تعقيداً. فالوعد هنا لايظهر حقا إلى إذا حدثت واقعة قبلا أو تحققت، فالوعد إذاً مشروط. والشكل الصحيح لهكذا فعل سيكون بـــالحري "((Q) P.F): أ ⟵ ق(ب) (حيث "ب" قضية أخرى)."

ب- الأفعال الصلحيِّة (les actes transactionnels)

بطريقة أكثر دلالة أيضاً، ندرك أن بعض الأفعال لا تحـــصل حقاً إلا إذا "شارك"المُتلقي بطريقة ما في تحقيقها.

إذا قلت على سبيل المثل "أراهن بعشرة فرنكات على الـــرقم ستة"، فلا يشكل هذا وحده رهاناً بَعد، فمن الضروري على المتلقي أن يجيب "مقبول"، يعني قبوله الرهان، مايجعله حاصلاً. ويظهر أن هذه الأنماط المختلفة من الفعل، وعلى الرغم مـــن اختلافاتهـــا، إلا أنها ذات نتائج مشتركة وإستدلالات كبيرة.

ب. نتائج

أ- من الفعل إلى التعاقب

يظهر من جهة، أننا لا نستطيع أن نُبقي على اعتبارنا للأفعال المعزولة فحسب؛ ففي سياق التبادل اللغوي يكتسب ظـــرف توليـــد ملفوظ(ما) (énonciation) (أي التلفظ) قيمة الفعل فـــي القـــول. يجب إذاً التوصل للنظر إلى فعل اللغـــة فـــي علاقاتـــه المنظمـــة (المضبوطة) مع ما يسبقه وما يليه، في داخل تعاقب الخطاب، ومن ثم تعيين الطريقة التي تنتظم فيها المقاطع المتعاقبـــة فـــي وحـــدة

إستدلالية أكثر اتساعاً، محادثة ومفاوضة، ومنازعة، ومحـــاورة... الخ.

ب- ... وإلى "الفعل الماكروي" (Macro- acte)

من أجل إدراك العلاقات بين الأفعال في القول داخل المقطع (séquence) ومن ثم على مستوى التبادل اللغوي التام، طور ت. أ. فأن ديك (T. A. Van Dijk) فـــي «دراســـات فـــي تداوليـــة الخطـــاب» (Studies in the pragmatics of Discours, 1981) تداولية الخطاب، مُبَيِناً البُنيات الماكروية (الكبرى): الدلالية (sémantiques) والتداولية في آن معاً. فاذا كانت الأولـــى مـــن طبيعة توضح المبادىء المختلفة للوحدة وهي تعمل في الخطـــاب، مثـــل التيمـــات (Thématisation= الموضـــوعات) والتـــرابط والتماسك، فإن الثانية تسمح بإدراك وثاقة (La pertinence) توليد الملفوظات بإزاء الهـــدف المطلـــوب فـــي التبـــادل، والمُـــستمثل (assimilable) مذ ذاك في كليته بفعل ماكروي للغـــة (Macro- acte).

ج- مـــن الفِعلـــي إلـــى الـــصلحيِّ (De l'actionnel au transactionnel)

ومن جهة أخرى، فإن إبراز وبَيانَ البعـــد الـــصلحي يـــسمح بإدراك أن على التوجـــه القـــصدي (intentionnelle) والحـــوار الذاتي (monologique) المهيمن على نظرية أفعال اللغـــة فـــي بداياتها أن يعدل في إتجاهه بطريقة تفسح في المجال أمـــام هـــذه المشاركة من المتلقي بتحقيق حتى الفعل في القول. وسيعزز هـــذا

التطلب أيضاً من خلال الإعتراف بالأفعال التي تسمى "غير حَرفِيَّة" (nonlittèraux).

2- الأفعال غير التوجيهية ورهاناتها

أ. الأفعال غير المباشرة

أ- تعريف

نتذكر تعريف فعل اللغة الذي اقترحه سيرل في شكل أولـــي: إنجازه يمر من خلال ســـياق التوليـــد (الـــتلفظ) (énonciation) الحرفي والمخلص والجاد لبعض الملفوظـــات فـــي ســـياق مـــن التواصل.

والحال، يظهر أن سياق توليد بعض الملفوظات، وعلى الرغم من انتهاكه في شكل جليٍّ لبند الحَرفية (littéralité) ، فأنها بقيـــت تعد من أفعال اللغة الحقة.

ب- مَثَل

لنتخَيلَ الوضع الآتي: نحن في غرفة شديدة التدفئة، ومغلقـــة النوافذ، وفجأة أصيح: "يا إلهي، إني أختنق! ". فهـــل هـــذا مجـــرد إظهار لحالتي الحاضِرة؟ من دون إستبعاد ذلـــك، وهـــذا محتمـــل: يكفيني فتح النافذة كي أعالج هذا العارض الطارىء. فاذا لم افعـــل ذلك واكتفيت بالصَياح، ألا يشكل ذلك قرينة أني أنتظر مِنك أنت أن تفتح النافذة؟ فاذا ما دَفع توليد الملفوظ الحرَفي إلى التفكيـــر بـــأني أحقق فِعلاً تعبيرياً، فإن تقويمه في السياق يسمح بالظن أنه بالحري فعلاً توجيهياً (directif): إني أطلب منك، وأيضاً بطريقـــة غيـــر

مُباشرة فتح النافذة، والذي يبدو في الوضـــع المحـــدد هـــذا أكثـــر ملاءمة.

ب. ماذا تعلمنا الأفعال غير التوجيهية

أ- من وجهة النظر التقنية

من وجهة نظر تقنية بحتة، يتعلق الامـــر بالنـــسبة للنظريـــة بمجرد توسعة (élargissement) ، فالأفعال غير المباشرة تُظهر أن القيمة الداخلة في القول (la valeur illocutoire) فـــي أثنـــاء توليد الملفوظ لاتسمح إلا نادراً "الإستنباط" من مكونات القوة الداخلة في القول (la force illocutoire) وحدها، ولكنه يتطلب أن يُميَّز بحسب سياقات الإستخدام الفعلية. وفي الاساس (Ab initio) نأخذ دائماً ومن ناحية المبدأ الفعل إنه حَرفـــي (littéral) ولكـــن حـــين يَظهر فارِق بين الغرض الداخل في القول (le but illocutoire) للفعل المأخوذ على أنه حَرَفي وظروف توليد ملفوظه، ينبغي البحث في ما إذا كان هذا الفعل، في الواقع، في خدمة فعل آخر، تحقق في شكل غير مباشر من خلال اللجوء إلى الأول. المهم هـــو المكانـــة المعترف بها للمتلقي، فهو من يأخذ على عاتِقه حين يكتشف فارقـــاً بين الفعل المنجز والوضع الذي استخدم فيه، وبسبب مـــن كفاءتـــه اللغوية ومن تحكمه الجيد بالسياق ومن معرفته للخلفية، يأخذ علـــى عاتقه "إعادة بناء" الفعل المنجز حقاً.

ب- من وجهة النظر الفلسفية

ما يظهر هُنا إذاً، في نوع من "عطفة تفسيرية"، هو مجـــدداً مكانة ودور المتلقيِّ في تحديد القوة الداخلة فـــي القـــول الخاصـــة

بالفعل، (la force illocutoire de l'acte) . في الحقيقة، تبقى هذه المكانة عند سيرل وفندرفيكين في حدودها الدنيا: يتعلق الامر بمجرد "إعادة بناء" من قِبل المتلقيِّ، بما يحفظ «قصد المعنى» (l'intention de sens) عند المتكلم. ولا يتراجع هذان المؤلفان عن التوجه القصدي والكلام الذاتي (المونولوجي) الثابت من نظريتهم. وحول هذه النقطة بالذات سيتوجه النقد الأكثر خصباً وجذرية. وخصوصاً نقد فرنسيس جاك (F. Jacques) في:
(l'espace logique de l'interlocution, Paris, PUF,1985)

ج- من الصلحيِّ إلى التفاعلي
(Du transactionnel à l'interactionnel)

بسبب من تعلقهم بوجهة نظرهم حول القصدية والكلام الذاتي، بقي سيرل وفندرفيكين فيي حدود مفهوم ضيِّق للتواصل اللغوي(Communication linguistique)، المأخوذ على أنه مجرد نقل لمعنى منتج دائماً ومن جانب واحد من طرف متكلم "سيِّدَ". بيد أن هذا المفهوم، وإن كان يسمح عند الإقتضاء، الإلتزام- مقابل بعض التعديلات- بالبُعد الصلحيِّ (transactionnelle) للدلالة، فإنه لا يبلُغ مع ذلك بُعد "العلاقة الخطابية المتبادلة" (interlocutive). ومع ذلك، فهنا، وهنا فقط، يمكننا أن نأمل بتطوير مقاربة غير إختزالية للتواصل اللغوي، يجري الإلتزام بها بكليتها، متمفصلة أخيراً في جوانبها المتعددة.

3-البُعدَ الخطابي المتبادل[1] (La dimension interlocutive)

أ. ماذا يعني التواصل؟

أ- نقد النماذج الكلاسيكية

تعود إلى فرنسيس جاك حقوق إقامة البعد الخطابي المتبـــادل لكلام المتحاورين في فلسفة اللغة. ولذلك اقتضى الأمر التحرر من المفاهيم المستخدمة للدلالة وللتواصل اللغوي، سواء تلك الخاصـــة بجاكوبسون(Jakobson) أو غريس (Grice)، والتي تبناها سيرل جهاراً. وهي مفاهيم مقيدة دائمـــاً بمنظـــار المخاطَـــب (التلقـــي) (allocutive) وحسب، مختزلة الإتصال في أسوأ الحـــالات إلـــى مجرد نقل (transfert) ، وفـــي أحـــسن الحـــالات إلـــى تبـــادل .(échange)

ب- "الوضع الأصلي للدلالة"

إذا كانت النماذج التوجيهية والقصدية غير كافية، فذلك بسبب تجاهلها الطابع الذي لايمكن اختزالـــه والأصـــلي تمامـــاً للعلاقـــة الخطابية المتبادلة (interlocutive):(إنها تتقوم بألفاظهـــا: (فـــي؛ من) (en) هذا (ceci) الذي (que) بواسطة (par)، هـــي (elle)، والأفراد(الذين هم الحوامل supports، وليسوا ألفـــاظ العلاقـــة)، الذين يؤمنون تباعاً أدوار المتكلم والمتلقي أثناء التبادل فـــي دورة الكلام، ويرتقون إلى مـــصاف الـــسلطة التلفظيـــة instances) énonciatives) وهم مشاركون في المسار الدلاليِّ. عندما تقـــوم

---

(1) interlocution = سيرورة توليد الملفوظ بين المتخاطبين.(المترجم).

العلاقة على هذا النحو ضمن حدود قواعدها، فإن الوضع الأصـــلي للدلالة يقود إلى ثلاث مجموعات من الشروط: وجود لمـــوادِ دالـــة (matériau signifiant) (شفرة اللغة أو محور الإختلاف axe)) (de la différence ؛ وحقيقـــة مـــا فـــوق لغويـــة (extra-linguistique) ("العـــالم" (le monde) الـــذي يأخـــذه متبـــادلو الخطاب على أنه مرجع، والذي يحدد محور الإسناد (أو المرجـــع) (L'axe de la référence)؛ ومتبادلون للخطاب ضـــمن علاقـــة (بواسطة وعندهم تدل الكلمات على شيء، محددة محـــور مـــسار الملفوظ بين متبـــادلي الخطـــاب) (L'axe de l'interlocution) عندها، لايعود الكلام مجرد قول شيء ما لأحدهم: انه، شيء أكثر أساسية، أن تقول في خصوص شيء ما، شيء ما مع أحدهم.

ب. الحوارية والحوار

أ- تعريف حواري للدلالة

بات في مقدورنا أن نقيس الفارق الذي يفصلنا عن المفـــاهيم القصدية والمونولوجية (الكلام الذاتي) للدلالة. فالدال (signifier) لم يعد يخضع للتحليل بعد الآن مثل الـــربط (conjonction): ب تنتج س كعلامة خاصة بـ "ي" (E " " produit x comme signe de y) و"ر" يـــستقبل "س" مثابـــة علامـــة "ي" " x (R reçoit comme signe deY) ولكـــن يـــصبح (أي الـــدال)" يتعـــاون الموضوع (1) والموضوع (2) ، أي S1 و S2 بواســـطة أفعـــال اللغة والمواجهة والأبستيمية لإنتـــاج "س" كعلامـــة خاصـــة بـ "ي" (F. Jacques, 1985, p. 209). فإذا ظهر كل متكلم تباعاً حاملاً

الصوت، فإن الإثنينية (La dyade) الخاصة بالمتخاطبين والتي تتشكل من واقعة العلاقة يمكن لها المطالبة بوضع "فاعل القول" (sujet de dire). تشير الحوارية إلى البنية الداخلية للخطاب بوصفه مُنتجا بين سلطات التلفظية في علاقة خطابية متبادلة (relation, interlocutive) ولفائدة الإثنينية المتولدة على هذا النحو.

ب- من الحوارية إلى الحوار

كل خطاب هو في جوهره حواري. إنه شرط التواصلية نفسها. بيد أن الخطابات المختلفة لا تلتزم بنفس الدرجة الموجبات الحوارية. فمع الحوار تبلغ أعلى درجة من ثبات البُنية؛ فهنا، في الواقع، تُحترم تماماً التكافوئية (La parité) والتبادلية (la mutualité et la réciprocité) الخاصة بالسلطات [أو المجاري التلفظية (des instances)]، بما يسمح بتشكيل جماعة فعلية المعنى والإسناد(المرجع) والقوة(الفعل) لمصلحة الإثنينية. خصائص الحوار هذه سيكون لها بطبيعة الحال أثر على البُنية الدلالية- التداولية للملفوظات التي تقبل بها، وعلى تسلسل المقاطع التي تجيزها. وعلى هذا الأساس، فإن الحوار يتعلق أكثر بمقاربة تقنية تشبه أي إستراتيجية إستدلالية، ومن دون أي ميزة تفضيلية. ولكن الخصائص البارزة التي يُظهرها لا تسمح حتى الإقرار له بدور تأسيسي مكان الخطاب البشري في شكل عام.

ج- نحو أنتروبولوجيا علائقية

إذا لم أستطع أن أدل (signifier) كلية إلا معكَ، واذا كانت الحوارية تؤسس قبليا (a priori) إمكانية الخطاب نفسه، وإذا كانت العلاقة الخطابية المتبادلة (la relation interlocutive) مكونة من عباراتها (Constitutive de ses termes) حينها يجد سؤال الفاعل نفسه وقد تحول: فبقدر ما تكون العلاقة الحقيقية فهي لا تربط "أنا" (Je) و"أنت" (tu) قد سبقتها في الوجود، ولكنها تشكل "نحن (Nous) لا يمكن إختزالها "نحن" التبادلية حيث تتأسس من خلال التجربة بين الأشخاص (interpersonnel) نقطة عبورنا إلى الشخص (la personne).

ترافقها نتيجة من بين نتائج أخرى- تقول أنه من الآن وصاعداً وفي العلاقة الخطابية المتبادلة وفي القابلية للحوار تنعقد هذه الجماعة من الأشخاص، وفيها تأتي الأتيقا (L'éthique) لتبسط نفسها. إن معيارية القانون الأخلاقي (la loi morale) تتبدى بالنسبة لنا في المبحث القيّمي للحوار (L'axiologie du dialogue)[1]

---

[1] Axiologie = مصطلح حديث يراد به البحث في طبيعة القيم وأصنافها ومعيارها ووضعها الميتافيزيقي، وترتبط نظرية القَيَم خصوصاً بعلوم المنطق والأخلاق والجمال والإلهيات. أنظر، مراد وهبة، المعجم الفلسفي، (القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ط3، 1979)، ص40- 41.(المترجم).

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد 525 لسنة 2012

51

فلسفة اللغة

أرادت هذه الفلسفة الجديدة أن تحاكي العلوم التي حققت تقدماً ملحوظاً لجهة الدقة والوضوح والضبط. فقد رغب الفيلسوف النمساوي لودفيغ فتجنشتين، كأبرز وجه لهذا التيار الفلسفي، في لغة مضبوطة يمكنها تمثيل الواقع. وفي عرفه فإن "هدف الفلسفة هو توضيح الأفكار". وإنه "يجب السكوت عما لا نستطيع الكلام فيه" (الرسالة المنطقية الفلسفية). ركّز فتجنشتين، وأقرانه لاحقاً، النظر في اللغة باعتبارها وسيلة لفهم تكوين المعنى في الخطاب، إذ لا سبيل إلى فلسفة التفكير والمعرفة والفهم دون اللغة: كل شيء يحدث داخل اللغة. وهذه الأخيرة "سُمّ يمكن استخدامه للإغواء والتضليل والسحر، ولكنها أيضاً ترياق وذلك عندما نتحدث بصدق". لم يعد المهم بالنسبة إلى الفلسفة والمنطق، كما يرى د. عبد الرزاق بنّور في قراءته لفتجنشتين، أن نبيّن ما هي القضايا الصادقة والكاذبة في علاقتها بالواقع، بقدر ما يهم النحو باعتباره ما سيمكننا من تمييز القضية ذات المعنى من القضية عديمة المعنى. فالفلسفة هي قبل كل شيء مقاومة الفتنة التي تحدثها فينا بعض أشكال التعبير كما يقول فتجنشتين في الكراسة الزرقاء(تحقيقات فلسفية، ترجمة وتقديم وتعليق د. بنّور، 2007).

المركز العلمي العراقي
بغداد
البريد الالكتروني
sci.studies@yahoo.com

دار ومكتبة البصائر
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
Email: iraqsms@gmail.com
iraqsms@ymail.com
www.daralbasaer.com